حافظ إبراهيم

شاعر النيل

١٨٧٢ — ١٩٣٢

هو صِنو شوقى فى إحياء دولة الشعر ، ولئن تميز عنه شوقى بالزعامة كما أسلفنا فى الحديث عن شوقى ، فإن حافظا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية ، فى حين كانت نشأة شوقى وحياته أرستقراطية ، فكان حافظ أقرب إلى روح الشعب ومشاعره ، وأقدر على تصوير آلامه التى شاركه فيها ، واكتوى بلهيبها ، فكان لذلك أبلغ فى التعبير عنها ، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من عبارات شوقى ، لأنه كان يحس إحساسا قويا أنه يخاطب الشعب فى مجموع مثقفيه وقارئيه .

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧٢ من أب مصرى وأم من أسرة تركية ، كان أبوه إبراهيم أفندى فهمى مهندسا يشرف على قناطر ديروط حيث ولد حافظ ، وتوفى و ط فى الرابعه من عمره ، فكفله خاله محمد أفندى نيازى وعاش فى كنفه عيشة الطبقات متوسطة التى كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار ، فأحس حافظ منذ صباه بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال ، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات .

تلقى التعليم الابتدائى وجزءاً من التعليم الثانوى ، ولكنه لم يتمه ، وانتقل مع خاله إلى طنطا وكان مهندس تنظيم بها وانقطع حافظ وقتاً ما عن متابعة التعليم ، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر .

واشتغل وقتاً وجيزا بالمحاماة بطنطا ، ولكنه لم يستمر فيها إذ لم يجد من نفسه ميلا إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب ، بل كان كالطير ينطلق مغردا بين مختلف الأشجار والأغصان .

ولقد فكر فى أن يكون ضابطا بالجيش إذ كانت الحياة العسكرية مما يستثير فى نفسه روح الشعر والخيال ، أو لعله أراد أن يقلد البارودى فى نشأته العسكرية . فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة ، وتخرج منها سنة ١٨٩١ ضابطا برتبة ملازم ثان ، وكان إذ ذاك فى سن العشرين تقريبا ، وانتظم فى حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء فى ربوعه ، فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر ، وغشى مجالس الشعراء والأدباء والعلماء ، وأفاض فيها من شعره وأدبه ، فتألقت شاعريته ، وعرف له معاصروه فضله ومكانته فى عالم الأدب والشعر ، وإذ كان الشعر لا يدرّ عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فقد عينه أحمد حشمت وزير المعارف فى سنة ١٩١١ رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية ، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ أحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية ، وتوفى يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢ .

كان حافظ شاعراً بطبعه ، ظهرت مواهبه الشعرية وهو فى السادسة عشرة من عمره ، لم يتلقها عن معلم أو أديب ، ولا تعلمها فى المدارس التى انتظم بها ، بل كانت وحى الإلهام والسليقة ، فكان يقول الشعر وهو فى هذه السن المبكرة ، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين ، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم فى جيد الشعر ، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته ، وبذّ مع الزمن أولئك الشعراء ، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والأدب .

وحافظ يمتاز فى شعره بقوة البلاغة وإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية ، ولقد أنصفه شوقى إذ قال فى رثائه :

يا حافظَ الفصحى وحارسَ مجدها ... وإمامَ من نَجلَت من البُلَغاء[1]

ما زلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميت أمانةَ القُدماء

خلّفت فى الدنيا بيانا خالدا ... وتركت أجيالا من الأبناء

وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل ... للدهر إنصاف وحسنُ جزاء

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد ، فقد كان بلا مراء خير ترجمان

---

(١) نجلت : أى ولدت .

للشعب فى أحاسيسه وآماله ، وخير مواس له فى مآسيه والآمه ، وتغنى بمصر والنيل فى قصائده الغرّ ، ولعلّ بقاءه فى السودان عدة سنين ، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك ، وتدابيرهم فى تحقيق أغراضهم الاستعمارية ، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادى النيل ، وتجلّت هذه المواهب فى شعره فى شتى المناسبات حتى سمى بحق « شاعر النيل » ، وهو إلى جانب ذلك شاعر الوطنية والاجتماع والأخلاق . كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق فى جهادهم للحرية ، إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح ، و بلغت دعوته إلى الأخلاق حدّ التقريع فى مخاطبته لبنى وطنه ومجابهتهم بالحق الصريح .

وحافظ و إن كانت ثقافته شرقية إلّا أنه قد تعلّم الفرنسية على كبر ، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه ، وساعده ذكاؤه وألمعيته على محاكاة الشعر الغربى أحياناً ، وكان يميل إلى التجديد فى شعره ، وفى ذلك يقول :

آن يا شعر أن تَفُكّ قيودا قيّدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ولقد نجح حافظ فى أن يرتفع بشعره فى كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعانى والأفكار والأساليب الحديثة ، فزاد شعره طلاوة ورنيناً موسيقياً حبّباه إلى النفوس وجعلا بعض قصائده أشبه بالأغانى والتغاريد .

الوطنية فى شعر حافظ

تتجلى الروح الوطنية و يتألق نورها فى شعر حافظ ، ولقد وجدت الحركة الوطنية فى قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود فى الجهاد ، والثورة على الاحتلال .

كان شعره معيناً لا ينضب من الكفاح الوطنى ، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه ، و يلهمه الذود عن حريته واستقلاله ، ولقد عبّر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠ :

مَتَى أرَى النِّيلَ لا تَحْلُو مَوارِدُه لغير مُرْتَهَبٍ للهِ مُرْتَقِبِ

فقد غدَت مِصرُ فى حالٍ إذا ذُكِرَتْ ... جادَتْ جُفونى لها باللُّؤْلُؤِ الرَّطب
كأننى عنـــدَ ذكرى ما ألمَّ بها ... قَرْمٌ تَرَدَّدَ بين المَوْت والهَرَبِ[1]
إذا نَطَقْتُ فَقاعُ السِّجْنِ مُتَّكَأٌ ... وإنْ سَكَتُّ فإنَّ النَّفْسَ لَم تَطِبِ
أيَشْتَكى الفَقْرَ غادِينا ورَائِحُنَا ... ونحن نَمْشِى على أرضٍ من الذَّهَبِ ؟!

وقوله فى قصيدة له سنة ١٩٠٩ :

لعمرك ما أرقتُ لغـــير مصر ... ومالى دونها أمـــــل يرام
ذكرتُ جـلالَها أيام كانت ... تصول بهـا الفراعنـــة العظام
وأيامَ الرجالُ بهـــــا رجالٌ ... وأيامَ الزمانُ لها غـــــلام

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠ :

كَمْ ذا يُكابِدُ عاشقٌ ويُلاقى ... فى حُبِّ مصرَ كثيرَةِ العُشَّاقِ
إنِّى لَأَحْمِلُ فى هَوَاكِ صَبَابَةً ... يامصرُ قد خَرَجَتْ عن الأطْواق[2]
لَهْـفِى عليكِ مَتَى أراك طَليقةً ... يَحْمِى كريمَ حِماكِ شَعْبٌ رَاقِى
كَلِفٌ بمَحْمُود الخِـــلال مُتَيَّمٌ ... بالبَذْل بين يَدَيْـــك والإنْفاق

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها فى (ملجأ الحرية) :

فتعاهَـــدْنا على دَفْعِ الأذَى ... بِرُكوبِ الحَزْم حتى نَظْفَرا
وتواصَيْنا بصَـــــبْرٍ بَيْنَنَا ... فغَـــدَوْنا قُوَّةً لا تُزْدَرَى
أنْشَرَتْ فى مصرَ شَعْباً صَالحاً ... كان قَبْلَ اليَوْم مُنْفَكَّ العُرَا[3]
كم مُحِبٍّ هائِمٍ فى حُـــــبِّها ... ذادَ عَنْ أجْفانِه سَرْحَ الكَرَى[4]
وشَبابٍ وكُهُولٍ أقْسَـــموا ... أنْ يَشِيدُوا مَجْدَها فَوْقَ الذُّرَا[5]

---

(١) القرم : أى الرجل الشجاع .
(٢) الأطواق جمع طوق : أى الجهد والطاقة .
(٣) أنشرت : أحيت .
(٤) الكرى : النوم .
(٥) الذرا : جمع ذروة وهى المكان المرتفع .

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل . وكان صديقاً له معجباً بجهاده . رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين . وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه . وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه فى « اللواء »[١] تقريظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل . وأسهب فى الثناء عليه سنة ١٩٠٣ حين عرّب كتاب (البؤساء) لڤيكتور هيجو .

قصيـــدة حافظ

فى حفلة مدرسة مصطفى كامل

و يبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده فى قصيدته التى ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ فى احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقاً على خطبة مصطفى . قال فى مطلعها :

سمِعنا حديثاً[٢] كقطْر النـــدى ... فجدَّد فى النفس ما جـــــددا
وأضحى لآمالنـا منعِـــــشاً ... وأمسى لآلامنـــــا مُرْقِدا

وقال يستثير فى النفوس روح الأمل والحياة وهى الدعوة المحببة إلى الفقيد :

فـــدنياكَ يا شرقُ لا تجزعنْ ... إذا اليومُ وَلَّى فراقبْ غـــــدا
فكم محنةٍ أعقبتْ محنـــةً ... وولَّت سِراعاً كرجْع الصـــدى
فلا يُبْئِسنّك قِيلُ العـــــداة ... و إن كان قيـــلا كَحزّ المُدى[٣]
أتودَع فيك كنوزُ العـــــلوم ... و يمشى لك الغرب مســـترفدا[٤]
وتُبعثُ فى أرضـــك الأنبياء ... ويأتى لك الغرب مسترشـــدا
وتقضى عليكَ قضاةُ الضلال ... طِوالَ الليـــالى بأن ترقُدا ؟

---

(١) عدد ٩ اكتوبر سنة ١٩٠١ .
(٢) يقصد خطبة مصطفى كامل فى الحفلة .
(٣) المدى بالضم جمع مدية : وهى السكين .
(٤) مسترفدا : أى يطلب الرفد وهو العطاء .

أتشقى بعهد سمـــــا بالعلوم ... فأضحى الضعيفُ بهـا أيّدا[١]
إذا شـــاء بَزّ الشّها سِرّه ... وأدرك من جَرْيه المقصِدا[٢]
وإن شـاء أدنى إليـه النجوم ... فناجى المجَرّةَ والفـــرقَدا[٣]
وإن شـاء زعزع شُمّ الجبال ... فخرت لأنعامه سُجّـــــدا
وإن شاء شاهـد فى ذرّةٍ ... عـوالم لم تَحْىَ فيها سـدى
زمانٌ تُسَخّرُ فيـه الرياح ... ويَغْدو الجمادُ به مُنشِدا[٤]
وتَعْنو الطبيعـــةُ للعارفين ... بمعنى الوجـود وسِرِّ الهُدَى
إذا ما أهابوا أجابَ الحديدُ ... وقام البخارُ له مُسْعِـــدا[٥]
وطارتْ إليهم من الـكهرباء ... بُروقٌ عَلى السّلك تَطوِى المَدى

* * *

أيَجْملُ من بعـد هذا وذاك ... بأن نَسْتـكين وأن نَجْمُدا ؟
وها أمة (الصُّفر) قد مَهّدَت ... لنـا النهجَ فاستبقوا المورِدا[٦]

وقال فيها مخاطبا الشباب :

فيا أيهـــا الناشئون اعملوا ... على خير مصر وكونوا يدا
ستُظهِر فيـكم ذواتُ الغيوب[٧] ... رجالًا تكون لمصر الفِـدا
فيـــاليت شعرىَ من منكُم ... إذا هى نادت يلبّى النـدا ؟

وقال فى ختامها مخاطبا مصطفى كامل :

لكَ الله يا (مصطفى) من فتًى ... كثير الأيادى كثير العدا
إذا ما حمدتُكَ بين الرجال ... فأنت الخليقُ بأن تُحْمـدا

---

(١) الأيد ، بتشديد الياء : القوى ، من الأيد بمعنى القوة .
(٢) بزه : سابه ، والسها الكوكب المعروف ، أى إذا شاء ذو العلم سلب من السهى سره وأظهره للناس .
(٣) المجرة والفرقد : نجوم فى السماء .
(٤) يشير إلى الطيران والفونوغراف .
(٥) مسعدا : أى معينا .
(٦) أمة الصفر : أى اليابان .
(٧) ذوات الغيوب : أى الأقدار التى فى عالم الغيب .

سيُحصِى عليك سجلُّ الزمان ثناءً يُخلِّد ما خُلِّدا
ويهتف باسمك أبناؤنا إذا آن للزرع أن يُحصَدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ . وتأمل فى البيت الأخير منها تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية ، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عند ما تجنى ثمار هذه الحركة . وقد ظل على هذا الرأى بعد وفاة الفقيد و بعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٩ . وجهر به فى رثائه للمرحوم محمد فريد فى ديسمبر سنة ١٩١٩ ، إذ قال مناجيا روح فريد :

قلْ (نصبَ النيل[1]) إن لاقيتَه فى جوار الدائم الفرد الصَّمدْ
إن مِصراً لا تَنِى عن قصدها رغمَ ما تلقى وإن طال الأمدْ
جئتُ عنها أحمل البشرى إلى (أول البانين) فى هذا البلدْ
فاسترحْ واهنأ ونمْ فى غِبطةٍ قد بذرتَ الحبَّ والشعبُ حَصَدْ

فحافظ يعترف هنا أيضا لمصطفى بأنه أول البانين فى صرح الحركة الوطنية ، و بأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار ما بذر . ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦ .

قصيدة حافظ فى حادثة دنشواى

لقيت حادثة دنشواى[2] صداها فى شعر حافظ ، فنشر فى ٢ يوليه سنة ١٩٠٦ — أى بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام — قصيدته المشهورة عن الحادثة . ندد فيها بسياسة الاحتلال ، وسبق بها شوقى بعام ، إذ أن شوقى لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها .

قال حافظ فى مطلع قصيدته مخاطبا المحتلين :

أيها القائمون بالأمر فينا ! هل نسيتم وَلاءنا والودادا ؟ !

---

(١) يريد مصطفى كامل .
(٢) راجع تفصيلها فى كتاب (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) .

خَفِّضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعْوَزَتْكمُ ذاتُ طَوْقٍ[١] بين تلك الرُّبا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمامُ سواءٌ لم تُغادرْ أطواقُنا الأجيادا[٢]
لا تظنُّوا بنا العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرَّشادا
لا تُقيدوا منْ أمّةٍ بقتيلٍ صادت الشمسُ نفسَه حين صادا[٣]

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ :

جاء جُهّالنا بأمرٍ وجئتم ضِعْف ضعفيه قسْوةً واشتدادا
أحْسِنوا القتل إن ضننتمْ بعفوٍ أقِصاصاً أردتم أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبْتم أم جمادا ؟

* * *

ليت شعرى أتلك (محكمة التفـ ـتيش) عادت أم عهْد (نيرون) عادا ؟
كيف يحلو من القويِّ التَّشفِّي من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا ؟
إنّها مُثْلةٌ تشفُّ عن الغيـ ـظ ولسنا لغيْظكم أندادا
أكْرِمونا بأرْضنا حيث كنْتم إنّما يُكرم الجوادُ الجوادا
إنّ عشرين حِجَّةً بعد خمسٍ علمَتنا السُّكون مهما تمادى
أمَّةُ النيل أكْبرت أن تُعادِى مَنْ رماها وأشْفقت أن تُعادَى
ليس فيها إلاّ كلامٌ وإلاّ حسْرةٌ بعد حسرةٍ تتهادى

وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية :

أيُّها المدَّعى العموميُّ[٤] مهلاً بعضَ هذا فقد بلغت المرادا

---

(١) ذات طوق : أى الحمامة .
(٢) الأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد . والأجياد الأعناق ، جمع جيد .
(٣) أى لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس ، وهو الكابتن بول . وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أى قتله به قودا .
(٤) إبراهيم الهلباوى .

قد ضمّنا لك القضـــاء بمصرٍ وضمّنا لجلك الإســـعادا
فإذا ما جلسْت للحكم فاذكرْ عهد (مصرٍ) فقد شفيت الفؤادا
لا جرى النيلُ فى نواحيكِ يا (مصـــرُ) ولا جادكِ الحيا حيث جادا[1]
أنتِ أنبتِّ ذلك النَّبْتَ يا (مصـــر) فأضحى عليـــك شوكاً قتادا
أنت أنبتِّ ناعقًا قام بالأمـ ـس فأدمَى القلوبَ والأكْبادا

* * *

إيه يا مدْرَهَ القضـــاء ويامَنْ ساد فى غَفْلَة الزَّمان وشادا
أنتَ جلاَّدُنا فلا تَنْس أنّا قد لبِسنا على يديك الحدادا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مبلغ الظلم البريطانى ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال ، ولقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوى على هـذا الظلم حملات اهتزت لها أركانه ، كما حمل على الضعف الذى كان من أسباب استفحال هذا الظلم . فـكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بأسباب النهوض والقوة فى محاربة الاحتلال .

قصيدته فى استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواى

وعاد يصف فظائع الاحتلال فى حادثة دنشواى فى قصيدة له قالها فى اكتوبر سنة ١٩٠٦ لمناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطانى من اجازته وكان صاحب الحول والطول وقتئذ فى البلاد .

(قصرَ الدُّبارة[2]) هل أتاك حديثُنا فالشرقُ رِيعَ له وَضجَّ المغربُ
أهلاً بساكنك الكريم ومَرحباً بعـــد التحية إننى أتعتّب

---

(١) الحيا : المطر .
(٢) يريد دار المعتمد البريطانى .

نَقَلَتْ لنا الأسلاكُ عنك رسالةً باتَتْ لها أحشاؤنا تتهلّب

إلى أن قال :

إنْ ضاقَ صدرُ النيل عمّا هالَه يوم الحمام فإن صدرك أرحب (١)

أو كلما باح الحزين بأنةٍ أمْسَت إلى معنى التعصّب تُنسب (٢)

رِفقاً عميدَ الدولتين بأمة ضاق الرجاء بها وضاق المذهب

رِفقاً عميدَ الدولتين بأمة ليست بغير ولائها تتعذب

إن أرهقوا صيّادكم فلعلهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا

ولربما ضَنَّ الفقيرُ بقوته وسخا بمهجته على من يَغصِب

في (دنشواى) وأنت عنا غائب لَعِب القضاء بنا وعزَّ المهرَب

حَسِبوا النفوسَ من الحمام بديلةً فتسابقوا في صيدهن وصوّبوا

نُكبوا وأقفرت المنازل بعدَهم لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم يُنكبوا !

خَلّيتهم والقاسطون (٣) بمرصدٍ وسِياطُهم وحبالُهم تتأهب

جُلدوا ولو منّيتهم لتعلقوا بحبال من شُنِقوا ولم يتهيّبوا

شُنِقوا ولو منحوا الخيار لأهّلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا (٤)

يتحاسدون على الممات وكأسُه بين الشفاهِ وطعمُه لا يَعذُب

موتان : هذا عاجلٌ متنمِّرٌ يرنو وهذا آجلٌ يترقّب

والمستشار (٥) مُكابِرٌ برجاله ومُعاجِزٌ ومناجزٌ ومُحزِّب

يختالُ في أنحائها متبسماً والدمع حول ركابه يتصبب

طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطْلب

---

(١) يوم الحمام أي يوم صيد الحمام في حادثة دنشواى .

(٢) يشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الديني هو سبب حادثة دنشواى .

(٣) القاسون الظالمون . (٤) أهلوا ورحبوا أي قالوا أهلا ومرحبا .

(٥) يريد الكيتن متشل مستشار وزارة الداخلية . وكان يشرف على تنفيذ الحكم . ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزا . وحزب أي جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد .

حبٌّ يحاولُ غرسه فى أنفس ... يُجنىَ بمغرسها الثنـــاء الطيب
كن كيف شئتَ ولا تكلْ أرواحنا ... للمستشار فإن عدلك أخصـب
وأفِضْ على (بُندٍ)[1] إذا ولى القضا ... رفقاً يهشّ له القضاء ويطرَب

قصيدته فى شكوى مصر من الاحتلال

قالها فى يناير سنة ١٩٠٧ :

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبَتْ ... حواشـــيه حتى بات ظلماً منظما
تَمنُّ[2] علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وأن أصبح المصرىُّ حُراً منعما
أعِدْ عهد (إسماعيل) جَلْداً وسخرة ... فإنى رأيتُ المَنَّ أنكى وآلما
عملتم على عِزِّ الجمـــــاد وذُلِّنا ... فأغليتمُ طيناً وأرْخصْتمُ دما
إذا أخصبتْ أرضٌ وأجدب أهلها ... فلا أطلعَتْ نبتاً ولا جادَها السَّما
نَهِشٌ إلى الدينـــار حتى إذا مشى ... به ربه للســـــوق ألفاهُ درهما
فلا تحسبوا فى وَفرة المال — لم تُفدْ ... متاعاً ولم تعصم من الفقر — مَغنما
فإن كثير المال — والخفضُ وارفٌ — ... قليلٌ إذا حلَّ الغـــلاء وخيّما[3]

قصيدته فى استقالة اللورد كرومر

فَتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى ... فلا تكذب التاريخ إن كنتَ منشدا
لقـــد حان توديعُ العميد وإنه ... حقيقٌ بتشييع المحبّين والعِدا
فودّعْ لنـا الطودَ الذى كان شامخا ... وشيِّع لنـا البحرَ الذى كان مُزبِدا

إلى أن قال :

يناديكَ قد أزريت بالعـلم والحجا ... ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) مَعهدا

---

(١) المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف وأحد قضاة المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين فى حادثة دنشواى وكان القاضى الموجه للأسئلة فى هذه المحاكمة ونمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الانتقام والتشفى .
(٢) يخاطب المعتمد البريطانى .
(٣) الخفض سعة العيش . يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تغنى شيئاً .

وأنك أخصبتَ البـــلادَ تعمُّدا ... وأجدبت فى مصر العقول تعمُّدا
قضيتَ على أمّ اللغـــــــات وإنه ... قضاء علينا أو سبيلٌ إلى الردى[1]
ووافيتَ والقطران فى ظـــل راية ... فمازلت (بالسودان) حتى تمردا
فطاح كما طاحت (مصوَّع) بعده ... وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حَجبْتَ ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حجبْتَ (المؤيدا)[2]
وأودعتَ تقرير الوداع مغامزاً ... رأينا جَفاء الطبع فيها مُجسَّـــدا
غمزتَ بها دينَ النـــــبى وإننا ... لنغضبُ إن أغضبتَ فى القبر (أحمدا)

* * *

يناديك أين النابغـــون بعهدكم ... وأى بناء شامخ قد تجـــددا ؟
فما عهد (إسماعيل) والعيشُ ضيّقٌ ... بأجدب من عهد لـكم سال عَسْجدا
يُناديكَ ولَّيتَ الوزارة هيئةً ... من الصُّمِّ لم تَسمعْ لأصواتنا صدى
فليس بها عنـــد التشاور من فتًى ... أبيٍّ إذا ما أصدر الأمر أوردا
بربك ماذا صـــدَّنا ولوى بنا ... عن القصد إن كان السبيل ممهدا ؟
أشرت برأيٍ فى كتابك لم يكن ... سديداً ولـكن كان سهماً مسددا
وحاولت إعطاء الغريبِ مكانةً ... تجر علينا الويلَ والذُّلَّ سرمدا
فياويل مصرٍ يوم تشقَى بنـــدوةٍ ... يبيتُ بها ذاك الغريب مُسَوَّدا[3]

* * *

ألم يكفنا أنا سُـلبنا ضياعَنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحَمنا فى العيش كل ممارسٍ ... خبـير وكنا جاهلين ورُقَّدا
وما الشركاتُ السودُ فى كل بلدة ... سوى شَركٍ يُلْقِى به من تَصَيّدا

(١) أم اللغات أى اللغة العربية . يشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم فى أكثر المدارس باللغة الإنجليزية . (٢) حجبت المؤيد أى منعته من دخول السودان .
(٣) يشير إلى مشروع اللورد كرومر فى إنشاء مجلس تشريعى مختلط .

قصيدته فى استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أقيل من منصبه فى أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواى ، وخلفه فى منصبه السير إلدون جورست ، فاستقبله حافظ بقصيدة عبر فيها عن شكوى مصر من الاحتلال وآثامه ، قال فيها فى أسلوب التهكم والسخرية :

أذيقونا الرَّجاء فقـــد ظمِئْنا — بعهْدِ المصلحين — إلى الورودِ
ومُنُّوا بالوجود فقـــد جهلنا — بفضل وجودكم — معنى الوُجود
إذا اعْلَوْلَى الصـياح فلا تلمنا فإنّ النـاس فى جُهْدٍ جهيد ![1]
على قدْر الأذى والظـلم يعْلو صياح المشفقين من المزيد !
جِراحٌ فى النفوس نَغَرْنَ نَغْراً وكُنّ قد اندملن على صديد[2]
إذا ما هاجهنّ أسًى جـديدٌ هتكْنَ سرائر القلب الجليد

إلى أن قال :

فمـــا جئنا نطاولكم بجاهٍ يطولكم ولا رُكْنٍ شـديد
ولـكنّا نطالبكمْ بحقٍّ أضرّ بأهـله نقضُ العهود

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية :

رمانا صاحب التّقرير ظلمـا بكفران العوارف والـكنود[3]
وأقسم لا يجيب لنـا نداء ولو جئنا بقرآن مجيد
وبَشَّرَ أهل مصرٍ باحتلالٍ يدوم عليهم أبد الأبيـد
وأنبت فى النفوس لكم جفاء تعهّدَه بمنْهَلّ الصُّـدود
فأثمرَ وحشـةً بلغت مَداها وزكّاها بأربعـةٍ شهودِ[4]

---

(١) اعلولى أى علا . (٢) نغر الجرح سال دمه ، واندمل التأم .
(٣) صاحب التقرير هو اللورد كرومر .
(٤) يريد بالشهود الأربعة من أعدموا فى قضية دنشواى وهم أربعة .

قتيلُ الشمس أورثَنا حياةً ... وأيقظ هاجعَ القوم الرُّقود[١]
فليت (كُرُومرًا) قد دام فينا ... يُطَوِّفُ بالسلاسل كلَّ جيد
ويُتْحِفُ (مصر) آناً بعدَ آنٍ ... بمَجْلودٍ ومقْتولٍ شهيد
ليَنزع هذه الأكفان عنا ... ونُبْعَثَ فى العوالمِ من جديد

— رثاؤه لمصطفى كامل

فى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره وأنشد قصيدته الرائعة فى رثائه قال :

أيا قبرُ هذا الضيف آمالُ أمة ... فكبِّرْ وهلل والقَ ضيفَك جاثيا
عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيدَ العُلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبرُ لو أنا فقدناه وحده ... لكان التأسى من جوى الحزن شافيا[٢]
ولكن فقدنا كل شىء بفقده ... وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءةُ والوفا ... وأين الحِجا والرأىُ ؟ ويْحك ها هيا !
— هنيئًا لهم[٣] فليأمنوا كل صائح ... فقد أُسكت الصوتُ الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعورَ وساقَه ... إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

* * *

مدحتُكَ لما كنتَ حيّاً فلم أُجِدْ ... وإنى أُجيدُ اليومَ فيك المراثيا
عليكَ[٤] وإلا ما لذا الحزنِ شاملاً ... وفيك وإلّا ما لذا الشعبِ باكيا
يموت المُداوى للنفوس ولا يَرَى ... لما فيه من داء النفوس مُداويا
وكنا نياما حينما كنت ساهداً[٥] ... فأسهدتنا حُزناً وأمسيتَ غافيا

* * *

---

(١) قتيل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزى الذى مات فى حادثة دنشواى بضربة الشمس ، يريد أن ما أصاب الناس من التنكيل بسبب هذا القتيل جعلهم يثورون للمطالبة بالحرية .
(٢) التأسى بمعنى الصبر .
(٣) يريد الإنجليز .
(٤) عليك : أى عليك الحزن .
(٥) ساهدا : ساهرا .

شهيدَ العلا لا زال صوتك بيننا ... يَرِنُّ كما قد كان بالأمس داويا
يُهيبُ بنا : هـــذا بناءٌ أقمتُه ... فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا
يصيح بنا : لا تُشعِروا الناس أننى ... قَضَيْتُ وأن الحيَّ قد بات خاليا
يُناشِـــــدنا بالله ألَّا تَفرَّقوا ... وكونوا رجالًا لا تَسُرُّوا الأعاديا
فَرُوحى من هـــذا المقام مِطِلَّةٌ ... تُشارفكم[1] عنى وإن كنتُ باليا
فلا تحزنوها بالخـــــلاف فإننى ... أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا

* * *

أجلْ أيها الداعى إلى الخير إننا ... على العهد ما دمنا فنَمْ أنت هانيا
بنـــاؤك محفوظٌ وطيفكَ ماثلٌ ... وصوتُكَ مسموعٌ وإن كنتَ نائيا
عَهدناك لا تبكى وتُنكر أن يُرَى ... أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فَرَخِّص لنا اليومَ البكاءَ وفى غـــد ... تَرانا كما تهوى جبالا رواســـيا
فيانيـــلُ إن لم تجْرِ بعد وفاته ... دماً أحمراً لا كنتَ يا نيلُ جاريا
ويا (مِصرُ) إن لم تحفظى ذكرَ عَهده ... إلى الحشر لا زال انحلالك باقيـــا
ويا أهلَ (مصرٍ) إن جهلتم مصابكم ... ثِقوا أن نجمَ السعـــد قد غارَ هاويا

* * *

ثلاثون عاماً[2] بل ثلاثون دُرَّةً ... بجيد الليالى ســـــاطعاتٍ زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن ... فتًى مفرداً بل كنتَ جيشاً مُغازيا

قصيدته فى حفلة الأربعين

وله فى رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها فى حفلة الأربعين قال :

نَثَروا عليك نوادىَ الأزهـــار[3] ... وأتيتُ أنثرُ بينهم أشـــــعارى

---

(١) تشارفـكم أى تنظر إليكم من علو .

(٢) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبى لأنه توفى فى الرابعة والثلاثين من عمره .

(٣) نوادى الأزهار : أى الرطبة المبللة بالندى .

زَيْنَ الشباب وزَيْنَ طُلَّاب العُلا ... هل أنتَ بالمهج الحزينة دارى ؟
غادرتنا والحادثاتُ بمرْصد ... والعيشُ عيشُ مذلّة وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عَدا ... عادٍ وصاح الصائحون : بدار
أين الخطيبُ وأين خَلّابُ النّهى ؟ ... طال انتظار السمع والأبصار
بالله مالك لا تجيب مناديا ... ماذا أصابك يا أبا المغوار ؟
قُمْ وامحُ ما خطّت يمين (كرومر) ... جَهْلًا بدين الواحد القهار
قد كنتَ تغضب للكنانة كلما ... هَمّتْ وهَمّ رجاؤها بعثار
غضب التّقيّ لربّه وكتابه ... أو غَضْبَة (الفاروق للمختار)[1]
قد ضاق جسمك عن مداك فلم يُطِق ... صبراً عليك وأنْتَ شُعْلةُ نار
أودى به ذاك الجهادُ وهدّه ... عزمٌ يهدُّ جلائل الأخطار
لعِبَتْ يمينك باليراع فأعجزت ... لعب الفوارس بالقنا الخطّار[2]
وجريْتَ للعلياء تبغى شأوها ... فجرى القضاء وأنت فى المضمار
أو كلما هزّ الرجاء مهنّداً ... بدرتْ إليه غوائل الأقدار ؟

* * *

عزّ القرارُ علىّ ليلةَ نعيه ... وشهدتُ موكبه فقرّ قرارى[3]
وتسابقت فيه النعاةُ فطائرٌ ... بالكهرباء وطائرٌ ببخار
شاهدتُ يومَ الحشر يومَ وفاته ... وعلمت منه مراتبَ الأقدار
ورأيت كيف تفى الشعوب رجالَها ... حقَّ الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشَّعٌ ... يمشون تحت (لوائك) السَّيار
خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطاراً على أسطار

---

(١) الفاروق : عمر بن الخطاب ، والمختار : النبى عليه الصلاة والسلام .
(٢) القنا : الرماح .
(٣) أى استقرت نفسى بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد فى موكب الجنازة .

آناً يُوالون الضجيجَ كأنهم ركبُ الحجيج بكعبة الزُّوّار
وتخالُهم آناً لفرط خشوعهم عند المُصلَّى ينصتون لقارى
غلب الخشوع عليهم فدموعهم تجرى بلا كلَح[1] ولا استنثار
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سيل دافق وشَرار
أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى فيصدنى متدفق التيار
لو لم أَلُذْ بالنعش أو بظلاله لقضيتُ بين مراجلٍ وبخار

* * *

كم ذات خدرٍ يوم طاف بك الردى هتكتْ عليك حرائرَ الأستار
سَفرتْ تودع أمَّةً محمولةً فى النعش لا خبراً من الأخبار
أَمِنَتْ عيون الناظرين فمزَّقتْ وجهَ الخمار فلم تَلُذْ بخمار[2]
قد قام ما بين العيون وبينها سِتْرٌ من الأحزان والأكدار

* * *

أدْرجتَ فى العَلَمِ الذى أصْفَيْتَه منك الودادَ فكان خيرَ شعار
عَلَمان[3] من فوق الرؤس كلاهما فى طيّه سِرٌّ من الأسرار
ناداهما داعى الفراق فأمْسيا يتعانقان على شفير هارى
تالله ما جزع المحب ولا بكى لِنَوىً مروّعةٍ وبعد مزار
جزع (الهلال) عليك يوم تركتَه ما بين حَرِّ أسىً وحَرِّ أوار[4]
متلفتا متحيِّراً متخيِّرا رجلا يناضل عنه يوم فخار
إن الثلاثين التى بك فاخرت باتتْ تُقاس بأطول الأعمار
ضَمَّتْ إلى التاريخ بضعَ صحائف بيضاء مثل صحائف الأبرار

---

(١) الكلح العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس .
(٢) الخمار : الحجاب .
(٣) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم الوطن .
(٤) الأسى : الحزن ، والأوار : الظمأ والتعطش ، أى التعطش إلى الفقيد .

شَبَّهْتُهُنَّ بنقطـــة عِطرية وسعتْ محصَّل روضةٍ مِعطار[١]
خَلَّفتها كالمشْق يحـذو حَذْوها راجي الوصـــول ومقتفى الآثار
ماذا على السارى وهُنَّ[٢] منائرٌ لو سار بين مجاهـل وقفار

* * *

ما زلتَ تختارُ للمواقفَ وَعْرة حتى وقفت لذلك الجبَّار[٣]
وهدمت ســـوراً قد أجاد بناءه فرعون[٤] ذو الأوتاد والأنهار
ووصلت بين شكاتنا ومشـايخ فى (البرلمـان) أجلةً أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا ما فى الـكنانة من أذى وضرار
نَبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا حَنَقَ المغيظ ولهجة الثرثار
ورماهُمُ بمجلدين[٥] رَمَوْهُما فى رتبة الأصفار لا الأســـفار

* * *

واهاً على تلك المواقف إنها كانت مواقف ليثِ غابٍ ضارى
لم يَلْوه عنها الوعيـــدُ ولا ثَنى من عزمه قولُ المريب : حـذار
فاهنأ بمنزلكَ الجـــديد ونَمْ به فى غِبطةٍ وانعم بخير جِوار
واستقبل الأجرَ الـكبير جزاء ما ضَحَّيْتَ للأوطان من أوطار
نِعْمَ الجزاء ونعم ما بُلِّغْتَه فى منزلَيك[٦] ونعم عقبى الدار

---

(١) الروضة المعطار : هى الـكثيرة الأزهار والرياحين .
(٢) هن إشارة إلى الثلاثين عاما : أى ماذا على السارى فى المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام .
(٣) اللورد كرومر .
(٤) شبه كرومر بفرعون .
(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر .
(٦) أى الدنيا والآخرة .

قصيدته فى الذكرى الأولى للفقيد

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال بإحياء ذكراه الأولى ، وهى من أبلغ روائع الشعر العربى ، قال :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا[١] واقضوا هنالك ما تقضى به الذممُ
هُنا جنانٌ تعالى الله بارئه ضاقت بآماله الأقدارُ والهمم
هُنا فمٌ وبنانٌ لاح بينهما فى الشرق فجرٌ تحيىّ ضوءه الأمم
هُنا فمٌ وبنانٌ طالما نثرا نثْراً تسيرُ به الأمثالُ والحِكَم
هُنا الكمىُّ[٢] الذى شادتْ عزائمهُ لطالب الحق رُكناً ليس ينهدم
هُنا الشهيدُ هنا ربُّ اللواء هنا حامى الذِّمار هنا الشهمُ الذى عَلموا

* * *

يا أيها النائم الهانى بمضجعه لَيهْنِكَ النومُ لا همٌّ ولا سقَم
باتت تسائلنا فى كل نازلة عنكَ المنابرُ والقرطاس والقلم
تركتَ فينا فراغا ليس يَشغَلُه إلا أبىٌّ ذكىُّ القلب مضطرِم
منفِّر النوم[٣] سبّاقٌ لغايته آثاره عَمَمٌ آماله أممُ

* * *

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى رُوحاً يَحُفُّ بها الإكبارُ والعِظَم
أرى جلالاً أرى نوراً أرى مَلَكاً أرى مُحيًّا يحيّينا ويبتسم
الله أكبرُ هذا الوجهُ أعرِفهُ هذا فتى النيل هذا المُفْرد العَلَم
غُضُّوا العيونَ وحيّوه تحيتَه من القلوب إذا لم تُسعِد[٤] الكلم

---

(١) استلم القبر : قبله أو لمسه بيده .
(٢) الشجاع .
(٣) منفر النوم أى مسهد .
(٤) أسعده : أعانه .

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه ... فنحن فى موقف يحلو به القسم

* * *

لَبيكَ نحن الأولى حركتَ أنفسَهم ... لما سكنتَ ولما غالك العَدَمُ

جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا ... ونستمدُّ ونستعْدِى[1] ونحتكم

قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا ... عسفُ الجفاة[2] وأعلى صوتنا الألمُ

قد اتُّهِمنا ولما نَطْلُبْ جللاً ... إن الضعيفَ على الخائين متهم

قالوا لقد ظَلَمُوا بالحقِّ أنفسَهُمْ ... والله يَعلمُ أن الظالمين هُمْ

إذا سكتْنا تناجَوْا : تلك عادتهمْ ... وإن نَطقنا تنادَوا : فتْنةٌ عَمَم

* * *

قد مَرَّ عامٌ بِنا والأمرُ يَحْزُبُنا[3] ... آنًا وآونةً تنتابنا النِّقَم

فالناسُ فى شدَّةٍ والدَّهرُ فى كَلَبٍ[4] ... والعَيشُ قد حارَ فيه الحاذِقُ الفهِم

وللسياسةِ فينا كلَّ آونةٍ ... لَوْنٌ جديدٌ وعهدٌ ليس يُحترَم

بينا نرى جَمرَها تُخشى مَلامسُه ... إذا به عند لَمسِ المصطَلِى فَحَمُ

تصغى لأصواتنا طوراً لتخدَعنا ... وتارةً يزْدَهيها الكِبرُ والصمم

فمن ملايَنةٍ أستارُها خدعٌ ... إلى مُصالبةٍ أستارُها وهَم

* * *

ماذا يريدون[5] ؟ لا قرَّت عيونهم ... إن الكنانة لا يُطوَى لها عَلَم

كم أمة رغبتْ فيها فما رسخت ... لها — على حولها[6] — فى أرضها قدم

ما كان ربك ربُّ البيت تاركها ... وهى التى بحبالٍ منه تعتصم

* * *

(١) نستمد : نطلب المدد، ونستعدى : نستنصر .
(٢) يريد بالجفاة المحتلين الجناة .
(٣) حزبه الأمر : اشتد عليه .
(٤) الكلب الشدة .
(٥) يريد المحتلين .
(٦) الحول القوة .

نبيك إنا على ما كنت تعهده ... حتى نسود وحتى تشهد الأمم
فيعلم النيل أنا خير من وَرَدوا ... ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

إلى أن قال :

يا أيها النشء سيروا فى طريقته ... وثابروا : رضى الأعداء أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرته ... وكلكم (كامل) لو جاره[1] السأم
قد كان لا وانياً يوماً ولا وكِلاً[2] ... يستقبل الخطب بَسّاماً ويقتحم
وأنت يا قبر قد جئنا على ظمأٍ ... فجد لنا بجوابٍ جادك الدِّيَم[3]
أين الشباب الذى أودعتَ نضرته ... أين الجلال — رعاك الله — والشيم ؟
وما صنعت بآمالٍ لنا طُويت ... يا قبرُ فيكَ وعفّى رسمها القِدم ؟
ألا جوابٌ يروّى من جوانحنا ؟ ... ما للقبور إذا ما نوديت تَجِم[4] ؟
نَمْ أنت يكفيك ما عانيت من تعب ... فنحن فى يقظة والشمل ملتئم
هذا (لواؤك) خفّاقٌ يظللنا ... وذاك شخصك فى الأكباد مُرتسم

تحية العام الهجرى

أعد الشباب فى سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالا كبيراً بالعام الهجرى الجديد تولى الطلبة تنظيمه برعاية نادى المدارس العليا ، وكان احتفالا رائعا أقيم بدار التمثيل العربى مساء الجمعة غاية ذى الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برآسة أحمد بك لطفى ، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة فى تحية العام الجديد . قال فى مطلعها :

أطلّ على الأكوان والخلق تنظرُ ... هلالٌ رآه المسلمون فكبّروا
تجلّى لهم فى صورةٍ زاد حسنها ... على الدهر حُسنا أنها تتكرر
وبَشّرهم مِن وجهه وجبينه ... وغُرته والناظرين مُبشّر

---

(١) جاره : أى جاوزه .
(٢) الوكل : العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره .
(٣) الديم جمع ديمة السحاب .
(٤) وجم يجم سكت عن الكلام .

وأذكرهم يوماً[١] أغرَّ محجلاً ... به توّج التاريخ والسعدُ مُسفر
وهاجر فيه خيرُ داعٍ إلى الهدى ... يَخُف به من قوة الله عسكر
يُماشيه جبريلُ وتسعى وراءه ... ملائكةٌ ترعى خُطاه وتحفر
يبشراه برهان من الله ساطعٌ ... هدى وبيُمناه الكتاب المطهر
فكان على أبواب (مكة) ركْبُه ... وفى (يثرب[٢]) أنواره تتفجّر
مضى العام ميمونَ الشهور مباركاً ... تعدّد آثارٌ له وتسطّر
مضى غيرَ مذموم فإن يذكروا له ... هناتٍ فطبع الدهر يصفو ويكدر
وإن قيل أودى بالألوف أجابهم ... مجيب لقد أحيا الملايين فانظروا
إذا قيس إحسانُ امرئٍ باساءة ... فأربى عليها فالإساءة تُغفر

ففيه أقام النائمون وقد أتت ... عليهم كأهل الكهف فى النوم أعصرُ
وفى عالم الإسلام فى كلِّ بقعة ... له أثر باقٍ وذكرٌ معطر

وبعد أن سرد الحوادث فى مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المنصرم، عرج على الحركة الوطنية فى مصر فحياها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب فى تمجيدها وتأييدها، قال:

وفيه سرَتْ فى مصر روحٌ جديدة ... مباركة من غيرة تتسعّر
خَبَتْ زمنا حتى توهمتُ أنها ... تجافت عن الإيراء لولا (كرومر)[٣]
تصدّى فأوراها وهيهات أن يرى ... سبيلا إلى إخمادها وهى تزفر
مضى زمن التنويم يانيلُ وانقضى ... ففى مصر أيقاظٌ على مصر تسهر
وقد كان «مرفين» الدهاء مخدراً ... فأصبح فى أعصابنا يتخدر
شعرنا بحاجات الحياة فإن وَنت ... عزائمنا عن نيلها كيف نُعذَر؟

---

(١) يريد يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة.
(٢) المدينة المنورة. (٣) خبت: خمدت، وتجافت: تباعدت. وإيراء النار إشعالها. وكرومر هو المعتمد البريطانى فى ذلك الحين والحاكم المطلق فى مصر وقتئذ، يريد أن فظائع كرومر قد اشعلت روح الكراهية للاحتلال.

شعرنا وأحسسنا وباتت نفوسنا ... من العيش إلا فى ذرا العز تسحر
إذا الله أحيا أمة لن يردها ... إلى الموت قهار ولا متجبر

وحيا الشباب بقوله :

رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى قادةٍ تبنى وشعبٍ يعمّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى مصلح يدعو وداع يُذكّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى عالم يدرى وعلمٍ يقرّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إلى حكمة تملى وكف تحرّر
رجال الغد المأمول إنا بحاجة ... إليكم فسدوا النقصَ فينا وشمروا
رجال الغد المأمول لا تتركوا غداً ... يمر مرور الأمس والعيشُ أغبرُ
رجال الغد المأمول إن بلادكم ... تناشدكم بالله أن تتذكروا
عليكم حقوقٌ للبلاد أجلُّها ... تعهدُ روضِ العلم فالروض مقفر
فصارى مُنى أوطانِكم أن ترى لكم ... يداً تبتنى مجداً ورأساً يفكر
فكونوا رجالا عاملين أعزة ... وصونوا حمى أوطانِكم وتحرروا

وعرج على حركة المطالبة بالدستور ، قال :

ويا طالبى (الدستور) لاتسكنوا ولا ... تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أعدوا له صدر المكان فإننى ... أراه على أبوابكم يتخطّرُ
ولا تنطقوا إلا صواباً فإننى ... أخاف عليكم أن يقالَ تهوّروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ... ولا ناله فى العالمين مقصّرُ
لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم[1] ... ونحن على الآثار لا شك نظفر
هُمُ لهم العام القديم مقدّرٌ ... ونحن لنا العام الجديد مقدر

وقد قوبلت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين ، وكان إلقاؤه رائعاً أخاذا ، ولبث فى إلقائه ساعة من الزمان كاملة .

(١) يريد إعلان الدستور فى تركيا عام ١٩٠٨ .

وفى ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضا احتفالا فخما بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٨) بمسرح (البيوت بأسك) بشارع عماد الدين ، وألقى فيه حافظ قصيدة من أبلغ شعره . قال فى مطلعها يحيى هلال العام الجديد :

لى فيكَ حين بَدَا سناكَ وأشرقا أملٌ سألتُ اللهَ أن يتحققا

ثم ذكر العام الذى مضى وما أصاب مصر فيه من كوارث ، قال :

أشرقْ علينا بالسّعود ولا تكنْ كأخيك مشئومَ المنازل أخرقا

إلى أن قال يعنى حرية الصحافة ويذكر ما أصابها من الضغط والاضطهاد :

ورمى على أرض الكنانة جرمَه بالمنزلات الشُّوهِ حتى أرهقا
حَصَدتْ مناجلُه غِراسَ رجائنا ولو انها أبقتْ عليه لأورقا
فتقيَّدت فيه (الصحافةُ) عنوةً ومشى الهوى بين الرعية مُطلقا
وأتى يساومُ فى (القناة) خديعةً ولو انها تمت لتمَّ بها الشَّقا[1]
إن البلية أن تُباع وتُشترى مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا
كانت تواسينا على آلامنا صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بَكَتْ عنا أسًى حتى تغصَّ وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهماً نرمى بها وسوابقا[2] يوم اللقا
كانت صِماما للنفوس إذا غلتْ فيها الهمومُ وأوشكت أن تزهقا
كم نفست عن صدر حرٍّ واجد[3] لولا الصمامُ من الأسى لتمزقا
ما لى أنوح على الصحافة جازعاً ماذا ألمَّ بها وماذا أحدقا
قصوا حواشيها وظنوا أنهم أمِنوا صواعقها فكانت أصعقا

---

(١) يشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس ، وقد ظهر فى أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية ، فى أبريل سنة ١٩١٠ .

(٢) السوابق من صفات الخيل ، أى كانت لنا عدة فى الجهاد .

(٣) الواجد : الحزين .

وأتوا بحذقهم[١] يكيد لها بما ... يثنى عزائمها فكانت أحذقا

وقال يخاطب الشباب ويهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها :

أهلا بنابتة البلاد ومرحباً ... جددتم العهد الذى قد أخلقا

لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم ... فلرُبَّ مغلوبٍ هوى ثم ارتقى

مدتْ له الآمال من أفلاكها ... خيطَ الرجاء إلى العلا فتسلقا

فتجشموا للمجد كل عظيمةٍ ... إنى رأيت المجد صَعب المرتقى

من رام وصل الشمس حاك خيوطَها ... سبباً إلى آماله وتعلقا

* * *

عارٌ على ابن النيل سباق الورى ... مهما تقلب دهرُه أن يُسبقا

أو كلما قالوا تجمع شملهم ... لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا

فتدفقوا حُججاً وحوطوا نيلكم ... فلكم أفاض عليكم وتدفقا

حملوا علينا بالزمان وصرْفه ... فتأنقوا فى سلبنا وتأنقا[٢]

هزُّوا مغاربها فهابت بأسهم ... يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقا[٣]

فتعاموا فالعلمُ مفتاح العلا ... لم يُبق بابا للسعادة مغلقا

ثم اسندوا منه كل قواكم ... إن القوىَّ بكل أرض يَتّقى

وابنوا حوالىْ حوضكم من يقظةٍ ... سوراً وخطوا من حذارٍ خندقا

وزِنوا الكلام وسدِّدوه فإنهم ... خَبَأوا لكم فى كل حرفٍ مزلقا

وامشوا على حذرٍ فإن طريقكم ... وعرٌ أطاف به الهلاكُ وحلقا

---

(١) يريد بطرس غالى رئيس الوزارة ، ولكن الحق أن تبعة ذلك يتحملها الوزراء جميعا لا بطرس غالى وحده .

(٢) أى حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائبه . وتأنق فى الأمر : أى بالغ فيه .

(٣) يشير إلى الإنجليز ، أى أنهم مدوا سلطانهم فى دول الغرب . ويدعو المصريين إلى أن لمصر هذه المكانة فى الشرق .

نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا ... للسالكين بكل فج موبقا[١]
الموتُ فى غشيانه وطروقه ... والموت كل الموت ألا يطرقا[٢]

فتحينوا فرصَ الحياة كثيرة ... وتعجلوها بالعزائم والرقى
أو فاخلقوها قادرين فإنما ... فرص الحياة خليقة أن تخلقا

مسألة قناة السويس

فى أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الرأى العام مسألة كبرى تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية ، وهى مشروع مدّ الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس أربعين عاما أخرى ، وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة واحتجاجها وطالبت بوقفه و بعرضه على « الجمعية العمومية » قبل البت فيه .

حركت هذه المسألة الهامة روح الشعر فى نفس حافظ ، فنظم فى نوفمبر سنة ١٩٠٩ قصيدة من بليغ شعره القومى ، وصف فيها الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد ، وأيد الحركة الوطنية فى مطالبها ، وعبر أصدق تعبير عن آلامها وآمالها ، قال فى مطلعها :

لقد نصَلَ الدُّجى فمتى تَنامُ ... أهمٌّ ذادَ نومَكَ أم هُيامُ[٣]

إلى أن قال :

أيجمل بالأديب أديب مصر ... بكاء الطفل أرهقه الفطامُ
ويصرفه الهوى عن ذكر مصر ... ومصرٌ فى يد الباغى تُضام
عدمتُ يراعتى إن كان مابى ... هوى بين الضلوع له ضِرام
وما أنا والغرامَ وشابَ رأسى ... وغال شبابى الخطبُ الجسام
وربّانى الذى ربىَّ (لبيداً) ... فعلمنى الذى جهل الأنام[٤]

---

(١) الفج : الطريق ، الموبق : الهلاك .
(٢) أى إذا كان فى الإقدام موت فإن فى الاستسلام موتاً أكبر .
(٣) الدجى : ظلام الليل .
(٤) لبيد ، هو الشاعر العربى صاحب المعلقة التى أولها :
* عفت الديار محلها فرسومها *

لعمرك ما أرقتُ لغير مصرٍ ومالى دونها أمل يرام
ذكرت جلالها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجالُ بها رجالٌ وأيام الزمانُ لها غلام
وأقلق مضجعى ما بات فيها وباتت مصر فيه فهل ألام ؟

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام قال :

أرى شعبا بمدرَجة العوادى تمخَّخ عظمه داء عُقام[1]
إذا مامرّ بالبأساء عام أطل عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى تخطّف رزقَه ذاك الزحام[2]
قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجُذام
هلاك الفرد منشؤه توانٍ وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد وَنَينْا وانقسمنا فلا سعىٌ هناك ولا وئام
فساء مُقامُنا فى أرض مصر وطاب لغيرنا فيها المُقام
فلا عجبٌ إذا مُلكت علينا مذاهبنا وأكثرنا نيام

وناجى الأمير حسين كامل وكان رئيسا لمجلس شورى القوانين أن يبث روح الحياة والتضا من فى نفوس أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية ، وناشدهم ألا يثقوا بوعود الاحتلال . قال :

(حسينُ . حسينُ) أنت لنا فنبِّه رجالا عن طِلاب الحق ناموا
وكن — بأبيك — لابن أخيك عَوْناً فأنت بكفه نِعْمَ الحسام
أفِضْ فى قاعة الشورى وئاما فقد أودى بنا وبها الخصام
وعلِّمهم مصادمة الأعادى فمثلك لا يُروِّعه الصدام
ففى (حزب اليمين) لديك قومٌ وإن قلوا فإنهم كرام

(١) المدرجة : الطريق . والعوادى : النوائب . وتمخخ العظم : إذا أخرج مخه .
(٢) أى مزاحمة الأجانب للمصريين .

وفى (حزب الشمال) لديك أشدّ كُماةً لا يطيب لهـــا انهزام
فكونوا للبـــلاد ولا يفتكم من النهزات والفرص اغتنام
فما ســـــادوا بمعجزة علينا ولكنْ فى صفوفهم انضمام
فلا تثقوا بوعد القوم يوما فإن سَحاب ساستهم جَهام[1]

وخافوهم إذا لانوا فإنى أرى الشوّاس ليس لهم ذِمام[2]
فكم ضحك (العميد) على لحانا وغر سراتنا منه ابتســـام

ونادى بالدستور وندد بمشروع مد امتياز القناة ، قال :

وليس العِلْم يمسكنا وحيداً إذا لم ينصر العـــــلَم اعتزام
وإن لم يدرك (الدستورُ) مصراً فما لحيـــــاتها أبدا قِوام
حَمَوْنا وِردَ ماء النيـــل عَذْباً وقالوا : إنه مـــوت زؤام
وما الموت الزؤام إذا عقلنا سوى (الشركات) حلَّ لها الحرام
لقـــد سعدت بغفلتنا فراحت بثروتنـــا وأولها (الترام)

* * *

فياويلَ (القناة) إذا احتواها بنو (التاميز) وانحسر اللِّثام
لقد بقيت من الدنيا حُطاماً بأيدينـــــا وقد عَزَّ الحطام
وقد كنا جعلناها زِماما فوالَهْفى إذا قُطِع الزمام !

* * *

فيا (قصر الدبارة) لست أدرى أحربٌ فى جرابك أم سلام ؟
أجِبْنا هل يُراد بنـــــا وراءك فنقْضِى أم يراد بنـــا أمام ؟
ويا (حزب اليمين) إليك عنا لقد طاشت نبالك والسهام
ويا (حزب الشمال) عليك منا ومن أبناء نجدتك الســـلام

---

(١) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .
(٢) الذمام : الذمة والعهد .

وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الرأى العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التى قررت رفضه ، و بذلك حبط المشروع .

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان فى مارس سنة ١٩١٠ ، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية ندد فيها بالاحتلال البريطانى ، ودعا إلى الخضوع لحكمه ، ولما وصل إلى القاهرة ألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته بالخرطوم ، وقد أثارت خطبتاه احتجاج الرأى العام ، وشارك حافظ الأمة فى سخطها على روزفلت ، ونظم قصيدة عصماء لامه فيها على إطرائه الاحتلال ، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة ، قال :

أىّ خطيبَ الدنيا الجديدة شَنَّفْ ... سَمْعَ مصر بقولك المأثور

إنما شوقها لقولك يا (روزْ ... فلت) شوق الأسير للتحرير

قِفْ غدا أيها الرئيس وعلِّمْ ... أهل مصرٍ حرية التعبير

واخبر الناس كيف سدتم على النا ... س وجئتم بمعجزات الدهور

وملكتم أعِنَّة الريح والما ... ء ودستم على رقاب العصور

قِفْ وعَدِّد مآثر العلم واذكر ... نعم الله ذكر عبد شكور

وإذا ما ذكرت أنعمه الكُبـ ... ـرى فلا تنس نعمة (الدستور)

* * *

يا نصيرَ الضعيف مالك تطرى ... خطة القوم[1] بعد ذاك النكير

لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم ... فى حماكم من دونهم ألف سور

أنت تطريهمُ وتثنى عليهم ... ناثياً آمناً وراء البحور

ليت شعرى أكنت تدعو إليهم ... يوم كانوا على تخوم الثغور

---

(١) يقصد الانجليز .

يوم كانوا قذى بعين (نيويور ك) وداء مستحكماً فى الصدور
يوم نادى (واشنجتون) فلبّا ه من الغيل كل ليث هصور[١]
يوم سجلتم على صفحات الد هر تاريخ مجدكم بالنور
ووثبتم إلى الحياة وثوبا ونفضتم عنكم غبار القبور
إنما النيل والمسيسبى[٢] صنوا ن هما حليتان للمعمور
وعجيب أن يفوز هذا بإطلا ق وهذا فى ذلة المأسور
يا نصير الضعيف حبّب إليهم هجر مصر[٣] تفز بأجر كبير
فعليهم أن يهجروا وعلى المص ـرىّ ذكر المتيم المهجور

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ فى رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره ألقاها بصوته الجهورى فى حفلة التأبين التى أقامها الحزب الوطنى يوم الأربعين لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩) ، فهزت مشاعر السامعين والمواطنين لما حوته من المعانى الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل ، قال :

مَنْ ليومٍ نحن فيه مَنْ لغدْ ؟ مات ذو العزمة والرأى الأسدّْ
حَلّ (بالجمعة) حزنٌ وأسى ومشى الوجد إلى (يوم الأحد)[٤]
وبدا شِعرى على قرطاسه لَوْعةً سالت على دمع جمَدْ

* * *

أيها النيل لقد جَلّ الأسى كُنْ مِداداً لى إذا الدمع نفدْ
واذبُلى يا زهرةَ الرَّوْض ولا تبسمى للطَّلّ فالعيشُ نَكَدْ
والزم النَّوْحَ أياطيرُ ولا تبتهج بالشَّدْوِ فالشدو حدد[٥]

---

(١) الغيل : موضع الأسد .
(٢) هو النهر المشهور بأمريكا .
(٣) أى الجلاء عنها .
(٤) كنى بيوم الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين .
(٥) الحدد : الحرام الذى لا يحل أن يرتكب .

فلقد وَلَّى (فريدٌ) وانطوى ركنُ مصرٍ وفتاها والسَّنَد

* * *

خالدَ الآثار لا تخش البِلَى ليس يَبْلَى من له ذكرٌ خَلَدْ
زرتَ (برلين) فنادى سَمْتُها نزلت شمس الضحى برجَ الأسد
واختفت شمسك فيها وكذا تختفى فى الغرب أقمار الأبد[١]

* * *

يا غريبَ الدار والقبر ويا سوة النيل إذا ما الخطبُ جَدّ
وحُساماً فَلَّ حدَّيه الرَّدى وشهابا ضاء وَهْنا وخمد
قُلْ (لصبِّ النيل)[٢] إن لاقيته فى جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصراً لا تنى عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئتُ عنها أحمل البشرى إلى (أول البانين)[٣] فى هذا البلد
فاسْتَرِحْ واهنأ ونَمْ فى غِبطةٍ قد بذَرتَ الحبَّ والشعبُ يحصد[٤]

* * *

آثر النيلَ على أمواله وقواه وهواهُ والولد
يطلب الخير لمصرٍ وهو فى شِقْوَةٍ أحلى من العيش الرَّغَد
ضاربٌ فى الأرض يبغى مأرباً كلما قاربه عنه ابتعد
لم يَعِبْه أن تجنَّى دهرُه رُبَّ جِدٍّ حاد عن مجراه جَدّ[٥]
يستجمّ العزمَ حتى إن بدت فرصة شدّ إليها وصمد
فهو لا يَثْنى عناناً عن مُنًى وهو هجيراه (من جد وجد)

---

(١) كانت وفاة الفقيد فى برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ .
(٢ و ٣) يريد مصطفى كامل .
(٤) يشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩ .
(٥) الجد (بالكسر) الاجتهاد ، وبالفتح الحظ . والمعنى : رب اجتهاد أخطأه الحظ .

فأيادينا إذا ما أنكرت إنما تنكرها عين الحسد

* * *

فقدت مصر (فريداً) وهى فى موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر (فريداً) وهى فى لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيرا حولا[1] وهى والأيام فى أخذ وردّ
لم يكد يمتعها الدهر به فى ربوع النيل حيا لم يكد
ليته عاش قليلا فترى شعبَ مصرٍ عينه كيف اتحد
ويح مصرٍ بل فويحاً للثرى إنه أبلغ حزناً وأشد
كم تمنى وتمنى أهله لو يوارى فيه ذياك الجسد[2]

* * *

لهفَ نفسى هل (ببرلين) امرؤٌ فوق ذاك القبر صلّى وسجد ؟
هل بكت عينٌ فروّت تُرْبَه هل على أحجاره خَطّ أحد ؟
هَا هُنا قبرُ شهيدٍ فى هوى أمةٍ أيقظها ثم رقَد !

ثورة سنة ١٩١٩

حيا حافظ ثورة سنة ١٩١٩ فى قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قمن بها يوم ١٦ مارس سنة ١٩١٩ احتجاجاً على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبوه مع المتظاهرين من فظائع القتل والتنكيل ، وقد مجد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن ، وحمل فى قصيدته حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن ، قال :

خَرَجَ الغوانى يَحْتَجِجْنَ وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّهْ
فإذا بِهِنَّ تَخِذْنَ مِنْ سُودِ الثياب شِعَارَهُنَّهْ

---

(١) الحول : الحاذق البصير بتحويل الأمور .

(٢) يشير فى هذا البيت والبيت الذى سبقه إلى أن جثمان الفقيد ثوى فى برلين ، وقد نقل إلى مصر فى يونيه سنة ١٩٢٠ .

فَطَلَعْنَ مِثْلَ كَوَاكِبٍ يَسْطَعْنَ فى وَسَطِ الدُّجُنَّهْ[١]
وأَخَذْنَ يَحْتَزِنَ الطَّرِيقَ وَدَارَ « سعد » قَصْرَهُنَّهْ
يَمْشِينَ فى كَنَفِ الوَقَا رِ وقد أَبَنَّ شُعُورَهُنَّهْ
وَإِذَا بِجَيْشٍ مُقْبِلٍ والخيلُ مُطْلَقَةُ الأَعِنَّهْ
وإذا الجنودُ سُيُوفُهَا قد صُوِّبَتْ نَحْوَهُنَّهْ
وإذا المَدَافِعُ والبنا دِقُ والصوارمُ والأَسِنَّهْ
والخيلُ والفرسانُ قد ضَرَبَتْ نِطَاقاً حولهنَّهْ
والوردُ والرَّيْحَانُ فى ذاكَ النهارِ سلاحُهُنَّهْ
فتطاحنَ الجيشان سا عاتٍ تشيبُ لها الأَجِنَّهْ
فتضعضعَ النسْوانُ والنِّسْوانُ ليس لهُنَّ مُنَّهْ[٢]
ثم انهزَمْنَ مشتَّتاتِ الشَّمْلِ نحو قصورِهِنَّهْ

* * *

فليهنأ الجيشَ الفخـ رُ بنصره وبكسرِهِنَّهْ !
فكأنما (الألمان) قد لَبِسُوا البراقعَ بينهنَّهْ
وأتوا (بِهِنْدِنْبُرْج[٣]) مُخْتَفِياً بمصر يقودُهُنَّهْ
فلذاكَ خافوا بأسَهُنَّ وأشفقوا من كيدِهِنَّهْ !

وأنشأ قصيدة حيا بها جمعية المرأة الجديدة ، وألمع فيها إلى بطولة المرأة فى ثورة سنة ١٩١٩ . قال :

إليكُنَّ يُهْدِى النِّيلُ ألف تَحِيَّةٍ مُعَطَّرَةٍ فى أَسْطُرٍ عَطِرات

---

(١) الدجنة : الظلام .

(٢) المنة : القوة .

(٣) المارشال هندنبرج ، القائد الألمانى الشهير فى الحرب العالمية الأولى .

وأثنى على أعمالكنّ مُوَكِّلى[1] بإطراء أهل البرّ والحسنات
أقمتنّ بالأمس الأساسَ مباركا وجئتنّ يومَ الفتح مغتبطاتِ
صنعتنّ ما يعيى الرجالَ صنيعُه فزدتنّ فى الخيرات والبركات

* * *

يقولون : نِصْفُ الناس فى الشرق عاطِلٌ نساءٌ قضَيْنَ العُمرَ فى الحُجُرات
وهذى بناتُ النيل يَعْمَلْنَ للنُّهى ويَغْرِسْنَ غَرْساً دانِيَ الثَّمَرات
وفى السَّنَة السَّوْداء كنتنّ قُدْوَةً لنا حينَ سالَ الموتُ بالمُهُجاتِ
وقفْتُنّ فى وَجْه الخميس مُدَجَّجاً وكُنْتُنّ بالإيمان مُعْتَصمات
وما هالَكُنّ الرَّمْحُ والسَّيْفُ مُصْلتاً ولا المَدْفَعُ الرَّشَّاشُ فى الطُّرُقات
تعلَّمَ منكنّ الرجالُ فأصْبَحُوا على غَمَرات الموْت أهْلَ ثبَات

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غراء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلى — كيرزون ، حين سفرت نيات الإنجليز فى العدوان على مصر ، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها ، ثم أشار إليها وهى تستنجد ببنيها البررة على غدرات الأيام ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل الأعلى ليحتذوه ، ويتعاونوا على التمسك بالحق كاملا حتى يبلغوه ، وقد أجرى الخطاب فى القصيدة على لسان مصر لينصت الجميع لصوتها ، إذ هى فوق الجميع ، وكان عنوان القصيدة حين نشرت (مصر فوق الجميع) :

وَقَفَ الخَلْقُ يَنْظُرون جميعاً كيف أَبْنِى قَوَاعدَ المَجْد وَحْدِى
وبُناةُ الأَهْرام فى سالف الدَّهْـ ـر كَفَوْنى الكلامَ عند التَّحَدِّى
أنا تاجُ العَلاء فى مَفْرِقِ[2] الشَّرْ ق ودُرَّاتُه فرائدُ عِقْدِى

(١) موكلى ، أى أن النيل قد أنابه عنه فى إبلاغهن ثناءه عليهن .
(٢) المفرق : وسط الرأس .

أيُّ شَيْءٍ فى الغَرْب قد بَهَرَ النَّا ... سَ جَمالا ولَمْ يَكُنْ منه عنْدى ؟
فتُرابى تِبْرٌ ونَهْرى فُرَاتٌ ... وسَمائى مَصْقولَةٌ كالفِرِنْدِ (١)
أينَمَا سِرْتَ جَدْوَلٌ عند كَرْمٍ ... عند زَهْرٍ مُدَبَّجٍ عند رَنْدِ (٢)
ورِجالى لو أَنْصَفُوهُمْ لَسادُوا ... مِنْ كُهولٍ مِلْءِ العُيونِ ومُرْدِ (٣)
لو أَصابوا لَهُمْ مجالاً لأَبْدَوْا ... مُعْجزاتِ الذَّكاءِ فى كلِّ قَصْدِ
أنا إنْ قَدَّرَ الإلهُ مماتى ... لا تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرأسَ بَعْدى

* * *

مارَمانى رامٍ وراحَ سليماً ... مِنْ قَدِيمٍ عنايَةُ اللهِ جُنْدى
كم بَغَتْ دَوْلَةٌ علىَّ وجارَتْ ... ثُمَّ زالَتْ وتلكَ عُقْبَى التَّعَدِّى
إنَّنى حُرَّةٌ كَسَرْتُ قُيودى ... رَغْمَ رُقْبَى العِدَا وقَطَّعْتُ قِدِّى (٤)

* * *

قُلْ لمنْ أَنْكَروا مفاخرَ قَوْمى ... مِثْلَ ما أَنْكَرُوا مَآثِرَ وُلْدى
هَلْ وَقَفْتُمْ بقمّةِ الهَرَمِ الأَكْـ ... ـبرِ يوماً فَرَيْتُمُ بَعْضَ جُهْدى ؟ (٥)
هَلْ رَأَيْتُمْ تلكَ النُّقوشَ اللَّواتى ... أَعْجَزَتْ طَوْقَ صَنْعَةٍ لِلْمُتَحَدِّى ؟
حالَ لَوْنُ النَّهارِ مِنْ قِدَمِ العَهْـ ... ـدِ ومامَسَّ لونَها طُولُ عَهْدِ
هَلْ فَهِمْتُمْ أَسْرارَ ما كان عِنْدى ... من عُلومٍ مَخْبُوءَةٍ طَىَّ بُرْدى ؟
ذاكَ فَنُّ التَّحْنيطِ قد غَلَبَ الدَّهْـ ... ـرَ وأَبْلَى البِلَى وأَعْجَزَ نِدِّى

* * *

قد عَقَدْتُ العهودَ منْ عَهْدِ فِرْعَوْ ... نَ فِى (مصرَ) كان أولُ عَقْدِ

---

(١) الفرات : العذب . والفرند : السيف .
(٢) المدبج ، أى مختلف الألوان ، أو المشرق المتلألئ . والرند : شجر طيب الرائحة .
(٣) مرد : جمع أمرد ، وهو الشاب .
(٤) القد : القيد ، يقد من جلد .
(٥) فريتم ، أى فرأيتم .

إنّ مَجْدى فى الأوليات عريقٌ ... مَن له مثل أوليَاتى ومَجْدى ؟
أنا أمُّ (التّشْريع) قد أخَذَ الرّو ... مانُ عنىّ الأصولَ فى كلّ حَدّ
ورصَدْتُ النّجومَ مُنْذُ أضاءتْ ... فى سماء الدّجى فأحكمْتُ رَصْدى
وَشَدَا (بنتئور[1]) فَوْقَ رُبوعى ... قَبْلَ عهْد اليونان أو عهْد (نَجْدِ)
أترانى وقد طَوَيْتُ حياتى ... فى مراسٍ لَمْ أبْلُغ اليومَ رُشْدى؟
أىُّ شَعْب أحقُّ منّى بعَيْشٍ ... وارِف الظّلّ أخضر اللّوْن رَغْدِ ؟

* * *

أمِنَ العَدْل أنّهمْ يَرِدون الـ ... ـماءَ صَفْواً وأن يُكَدَّرَ وِرْدِى ؟
أمِنَ الحقّ أنّهم يُطْلِقون الـ ... ـأُسْدَ منهمْ وأنْ تُقَيَّدَ أُسْدى ؟
نصْفُ قَرْنٍ إلاّ قليـــلا أُعانى ... ما يُعانى هوانَه كُلُّ عبد[2]

نَظَرَ اللهُ لى فأرْشَدَ أبْنـــا ... ئى فشَدُّوا إلى العُلاَ أىَّ شَدّ
إنما الحقُّ قُوّةٌ منْ قُوَى اللّـ ... ـهِ يَبَان أمْضَى مِن كُلِّ أبيَض هِنْدى

وقال فى تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد :

قد وَعَدْتُ العُلَى بكلِّ أبِيٍّ ... من رجالى فأنْجِزُوا اليوم وعدى
أمْهِرُوها بالرُّوح فهى عَروسٌ ... تَشْنَأُ المهْرَ من عُرُوضٍ ونَقْدِ[3]
وَرِدُوا بى مناهـل العزّ حتى ... يَخْطُبَ النجمُ فى المَجَرّة وُدِّى
وارْفَعوا دولتى على العِلْم والأخْـ ... ـلاق فالعلم وَحْدَه ليس يُجْدِى
وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ فالصبرُ إنْ فا ... رَقَ قوماً فما له مِنْ مَسَدّ

(١) بنتئور : أقدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصرى ، وقبل عهد اليونان الخ ، أى قبل شعراء اليونان وشعراء العرب .
(٢) يقصد عهد الاحتلال البريطانى .
(٣) تشنأ : تكره .

خُلُقُ الصَّبْرِ وَحْـده نَصَرَ القو مَ وأغْنَى عن اختراعٍ وعَدِّ
شَهِدُوا حَوْمَةَ الوَغَى بنُفُوسٍ صابراتٍ وأوْجُهٍ غـيرِ رُبْدِ
فمحا الصَّبرُ آيةَ العِلْمِ فى الحَرْبِ وأنْحَى على القَوِىِّ الأشَـدِّ

وقال يدعو إلى توحيد الـكلمة ونبذ الشقاق وكانت البلاد وقتئذ فى غمرة من الانقسام

إنَّ فى العَرْب أعْيُنًا راصِداتٍ كحَلَتْها الأطماعُ فيـكم بسُهْدِ
فَوْقها مِجْهَرٌ يُرِيهـا خفايا كُمْ ويَطْوى شُعاعُه كُلَّ بُعْدِ
فاتّقُوها بجُنَّةٍ مِن وئامٍ غيرِ رَثِّ العُرا وسَعْيٍ وكَدِّ
واصفَحوا عن هَناتِ مَن كان منكم رُبَّ هافٍ هَفَا على غير عَمْد

نَحْنُ نَجْتازُ مَوْقِفًا تَعثُرُ الآ راء فيـه وعَثْرَةُ الرأى تُرْدِى
ونُعيرُ الأهْـواء حَرْبًا عَوانًا من خِلافٍ والخُلْف كالسُّلِّ يَعْدِى
ونُثيرُ الفَوْضَى على جانِبَيْه فيُعيد الجهولُ فيها ويُبْدِى

ويَظُنُّ الغَوِىُّ أنْ لا نظامٌ ويقول القوىُّ قد جَدَّ جِدِّى
فقِفُوا فيـه وَقفة الحزم وارْمُوا جانبيْه بعَزْمَة المستعـــدِّ
إننا عنـد فجر لَيلٍ طويلٍ قد قطعناه بين سُهْدٍ ووَجْد
غَمَرتنا سُودُ الأهاويل[1] فيه والأمانىُّ بين جَزْرٍ ومَدِّ
وتَجلى ضياؤُه بعـــد لأْيٍ وهو رَمْزٌ لعَهْدِىَ المُسْتَرَدِّ
فاستبينوا قَصْدَ السَّبيل وجِدُّوا فالمعالى مخطوبةٌ للمُجِـــدِّ

ـ الاستقلال المقيد

قالها عند ما أعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ :

أصبحتُ لا أدرى على خِبْرَةٍ أجَدَّتِ الأيامُ أمْ تَمْزَحُ ؟

(١) الأهاويل جمع أهوال .

أموقفٌ للجِـــــدِّ نجتازُه ... أمْ ذاك للّاهى بنا مَسْرَحُ ؟
ألمحُ لاستقلالنا لَمْعَـة ... فى حالك الشكِّ فأستَرْوِحُ
وتطمِسُ الظُّلْمَـةُ آثارها ... فأثنى أُنـكِر ما ألمحُ
قد حارتِ الأفهام فى أمرهم ... إنْ لمَّحوا بالقَصْد أو صرَّحوا !
فقـــائلٌ لا تَعْجَلوا إنكم ... مكانَكم بالأمس لم تَبْرَحُوا
وقائلٌ أوْسِعْ بها خُطْوَة ... وَرَاءها الغايةُ والمَطْمَحُ
وقائلٌ أسْرَفَ فى قوْله : ... هذا هوَ استقلالُكم فافْرَحوا
إنْ تَسْألوا العقل يقُلْ عاهِدوا ... واستَوْثِقوا فى عَهْدِكم تربَحوا
وأسِّسُوا داراً لنُوَّابكُمْ ... للرَّأى فيها والحِجَا أفْسِحُوا

ولْتذكُر الأُمـــةُ ميثاقَها ... ألّا ترَى عِزَّتَهـا تُجْرَحُ
وتَنْتَخِبْ صَفْوَةَ أبنائهـا ... فمنْهُمُ المُخْلِصُ والمُصْلِـحُ

وليتّـــق الله أُولو أمرها ... أنْ يُسكِتُوا الأصواتَ أوْ يُرْفِعوا[1]
أو تسألوا القلب يقُلْ حاذِرُوا ... وصابِرُوا أعْداءكم تُفلِحوا
إنى أرى قَيْدًا فلا تُسْلِمُوا ... أيديكُمْ فالقيد لا يَسْجَحُ[2]
إنْ هيأوه من حريرٍ لكُم ... فهـــو على لينٍ به أفْدَحُ
حَتَّامَ — والصبرُ له غايةٌ — ... لغيرنا من بِئْرنا نَمْتَحُ ؟
حتام — والأموالُ مَشْفوهةٌ —[3] ... نَمْنَحُ إلا (مِصْرَ) ما نَمْنَحُ ؟
حتام يُمْضِى أمْرَنا غـــيرنا ... وذاك بالأحْرار لا يَمْلَحُ ؟

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام ويستنكر الفرقة والانقسام :

أساءَ بَعْضُ الناس فى بعضهم ... ظنا وقد أمسَوْا وقد أصْبَحُوا

---

(١) يريد تأمين المواطنين من النفى إلى (رفح) وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ منفى للأحرار
(٢) يلين ويسهل .
(٣) أى مستنفدة مضيعة .

فانتهزَتْ أعـــداؤنا هُبْرَةً ... فينا وما كانت لهم تَسْنَحُ
فالرأىُ كلُّ الرأْى أن تُجْمِعوا ... فإنمـــــا إجماعكم أرْجَحُ
وكلُّ من يطمعُ فى صَدْعِكم ... فإنه فى صـــخرةٍ يَنْطَحُ
أخْشَى إذا استكثَرْتمُ بينكم ... من قادةِ الآراء أن تَفْضَحوا
فلْتَقْصُـدوا ما استطَعْتمُ فيهمُ ... فإنمـــــا فى القلة المَنْجَحُ

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن (غادة اليابان) ضرب فيها الأمثال فى التضحية والجهاد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعتها فى الحرب التى شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤، إذ ذهبت متطوعة إلى ميادين القتال تواسى الجرحى، وترعى حقهم قال:

لا تلم كيفَ إذا السيف نَبَا[1] ... صَحَّ منى العزمُ والدهرُ أبى
رُبَّ ساعٍ مُبصرٍ فى سـعيه ... أخطأ التوفيق فيما طلبـــا
مرحبـا بالخطب يَبْلونى إذا ... كانت العلياء فيـــه السببا
إيه يا دنيا اعبسى أو فابسمى ... لا أرى برقَكَ إلا خُلَّبا[2]

إلى أن قال:

كنتُ أهوى فى زمانى غادةً ... وَهبَ الله لهـــا ما وهبا
حَمَلَتْ لى ذات يومٍ نبأً ... لا رعاك الله يا ذاك النَّبا
وأنت تخطر والليـــلُ فتًى ... وهلالُ الأفْقِ فى الأفق حَبَا
ثم قالت لى بثغر باسمٍ ... نظمَ الدرَّ به والحَبَبَـــا
نَبأُونى برحيـل عاجلٍ ... لا أرى لى بعده مُنْقلبا[3]

---

(١) نبا السيف: كل وارتد.
(٢) البرق الخلب الذى ينتظر الناس مطره ويخلفهم.
(٣) المنقلب: العودة.

ودعانى موطنى أن أغتدى[١] عَلَّنى أقضى له ما وهبا
نذبح الدُّبَّ[٢] ونَفْرِى جلدَه أيظنّ الدبُّ أن لا يُغْلَبَا ؟

* * *

قلتُ والآلام تغرى مهجتى وَيْكِ ! ما تصنعُ فى الحرب الظُّبا ؟
ما عهدناها لظبيٍ مسرها يبتغى ملهى به أو ملعبـــا
ليست الحرب نفوسا تُشْتَرَى بالتمـــنى أو عقولا تُسْتَبَى
أحسبتِ القدَّ من غدَّتها أم ظننت اللحظ فيها كالشبا[٣]
فدعيها للذى يعرفها والزمى ياظبية البان الخبا[٤]

* * *

فأجابتنى بصوتٍ راعنى وأرتنى الظَّبْىَ ليثاً أغلبا
إن قومى استعذبوا وِرْدَ الرَّدَى كيف تدْعونَ ألا أشربا ؟
أنا يابانيـــــة لا أثنى عن مرادى أو أذوق العَطبا
أنا إن لم أحسن الرمىَ ولم تستطع كفَّاى تقليب الظُّبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم وأُواسى فى الوغى من نُكبا
هكذا (الميـكادُ) قد علَّمنا أن نرى الأوطانَ أُمًّا وأبا
ملكٌ يكفيك منه أنه أنهضَ الشرق فهزَّ المغربا
بعث الأمة من مرقدها ودعاها للعلا أن تَدَأبا
فَسَمَتْ للمجد تبغى شأوه وقضتْ من كل شىء مأربا

---

(١) أغتدى ، أى أبادر مبكرة للدفاع عنه .
(٢) الدب : رمز لروسيا .
(٣) الشبا : جمع شباة وهى حد السيف .
(٤) البان : شجر لين تألفه الظبا ، والخبا : البيت .

يستنهض الهمم ، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يخاطب المواطنين :

ويدُ الإله مع الجماعة فاضربوا بعصا الجماعة تظفروا بنجاح
كونوا رجالا عاملين وكذِّبوا —والصبحُ أبلجُ— حاملَ المصباح[1]
ودعوا التخاذل فى الأمور فإنما شَبَحُ التخاذل أنكرُ الأشباح
واللهِ ما بلغ الشقاء بنا المدى بسوى خلافٍ بيننا وتلاحى[2]

* * *

قُمْ يا ابنَ مصر فأنت حرٌّ واستعِدْ مجد الجدود ولا تَعُدْ لِمراح[3]
شمِّر وكافح فى الحيـــاة فهذه دُنياك دارُ تناحر وكفاح
وإذا ألحَّ عليك خطبٌ لا تَهُنْ واضرِب على الإلحاح بالإلحاح
وخُضِ الحياة وإن تلاطم موجُها خوضُ البحار رياضـــةُ السباح
فى البحر لا تثنيك نارُ بوارجٍ فى البر لا يلويك غابُ رماح
وانظر إلى الغربىِّ كيف سَمَتْ به بين الشعوب طبيعـــة الكدَّاح

إلى أن قال :

وابنُ الكنانة فى الكنانة راكدٌ يَرْنُو بعينٍ غـــير ذات طماح
لا يستغل كما علمتَ ذكاءه وذكاؤه كالخاطف اللمَّاح
فانْهَضْ ودَعْ شكوى الزمان ولا تنُحْ فى فادح البؤسَى مع الأنواح
واربح لمصر برأس مالك عِـــزَّةً إن الذكاء حُبالة الأرباح
واشرب من الماء القُراح مُنَعَّماً فلكم وردتَ الماء غيرَ قَرَاحِ

(١) الإشارة إلى الفيلسوف ديوجنس الذى كان يحمل فى رابعة النهار مصباحا يبحث عن رجل
(٢) التلاحى : التخاصم .
(٣) يريد بمراح : الأخذ بأسباب المرح واللهو .

يحذر سعدا من خداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يخاطب سعد زغلول من قصيدة له فى تهنئته بنجاته من محاولة اغتياله وكان إذ ذاك معتزماً السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى القضية الوطنية :

لا تقرب (التاميزَ) واحذرْ ماءه ... مهما بدا لك أنه معسولُ

الكيدُ ممزوجٌ بأصفى مائه ... والخَتْل[1] فيه مُذَوَّبٌ مصقول

كم وارِدٍ يا (سعدُ) قبلك ماءه ... قد عاد منه وفى الفؤاد غليل[2]

القومُ قد ملكوا عِنانَ زمانهم ... ولهم روايات به وفصول

ولهم أحابيلٌ[3] إذا ألقَوْا بها ... قَنصوا النُّهَى فأسيرُهم مخبول

ولكل لفظٍ فى المعاجم عندهم ... معنى يقال بأنه معقول

نَصَلَتْ[4] سياستُهم وحالَ صباغُها ... ولكل كاذبة الخضابِ نُصُول

جمعوا عقاقير الدواء وركَّبوا ... ما ركبوه وعندك التحليل

حافظ والإنجليز وجها لوجه

فى سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية فى إلغاء الحياة الدستورية ، وتظاهروا بأنهم على الحياد فى هذه المحنة ، مع أنهم مدبروها ، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيهم وعدوانهم ، وكشف فيها الستار عن حيادهم الكاذب ، وطعن على سياسة الاستعمار عامة ، وأعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التى نظمها فى تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال فى عهد مصطفى كامل ومحمد فريد .

قال فى مارس سنة ١٩٣٢ مخاطبا الإنجليز منددا بسياسة « الحياد » التى أعلنوها ، ناعيا عليهم ظلمهم و إخلافهم وعودهم للأمة :

---

(١) الختل : الخداع والمكر .

(٢) الغليل : شدة العطش .

(٣) الأحابيل : المصايد .

(٤) نصلت : انكشفت وخرجت من لونها الكاذب إلى لونها الحقيق . وحال : تحول .

بَنَيتُمْ على الأخلاق آساسَ مُلْكِكم فكان لكم بين الشعوب ذِمامُ[1]
فما لى أرى الأخلاق قد شاب قَرْنُها[2] وحَلَّ بها ضعفٌ ودَبَّ سقام
أخاف عليكم عثْرَةً بعد نهضة فليس لملك الظالمين دَوام
أضَعتُم وداداً لو رعَيتُم عهوده لما قام بين الأمنين خصام
أبعد « حيادٍ » لا رعى الله عهدَه وبعد الجروحِ الناغراتِ[3] وئام ؟
إذا كان فى حسن التَّفاهم مَوْتُنا فليس على باغى الحياة مَلام

وقال فى هذا المعنى :

لا تَذْكروا الأخلاقَ بعد « حِيادكم » فمصابكم ومصابنا سيَّان
حاربْتمو أخلاقَكم لِتحاربوا أخلاقنا فتألَّم الشَّعبانِ

وقال عن (الحياد الكاذب) :

قَصْرَ الدُّبارة قد نقضْـ ـتَ العهدَ نَقْضَ الغاصب
أخفيتَ ما أضمرْتَه وأبنْتَ ود الصاحب
الحربُ أرْوَحُ للنفو س من « الحياد » الكاذب

وقال مخاطبا السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى وقتئذ ، منددا بحياد الإنجليز المصطنع :

أَلمْ ترَ فى الطريق إلى « كياد »[4] تصيد البَطّ بؤس العالمينا ؟
أَلمْ تلمحْ دموعَ الناس تجرى من البلوى — ألمْ تسمع أنينا ؟
ألمْ تخبر بنى « التاميز » عنا وقد بعثوك مندوباً أمينا ؟
بأنا قد لمسْنا الغدر لَمْساً وأصبح ظننا فيكم يقينا

(١) الذمام هنا الحق والحرمة .
(٢) القرن : الذؤابة من الشعر .
(٣) الناغرات : الداميات .
(٤) بركة بمركز فاقوس بالشرقية كان المندوب السامى البريطانى يذهب إليها لصيد الطيور .

كشفنا عن نوايا كم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا
سنجْمع أمرنا فتروْن منا لدى الجُلَّى[١] كراماً صابرينا
ونأخـذ حقنا رغم العوادى تُطيف بنا ورغم القاسطينا[٢]
ضربتم حَوْلَ قادتنا نطاقا من النيران يُعْيى الدّارعينا
على رغم المروءة قد ظفرتم ولـكن بالأسـود مصفّدينا
فهل يجديكم الأسـطول نفعا إذا ما نازل الحقّ المبينا ؟

وقال فى هذا المعنى (ابريل سنة ١٩٣٢) :

(إلى المحايدين)

أمُحـايدٌ أمْ حائدٌ عن مَنهج الحق المبينْ ؟
نَازلتَ شـعباً أعزلا بمدرَّعين مدجَّجينْ
وأَمِنتَ عقبى الظالمين وبئْسَ عقبى الظالمين !
مهما تُصِـبْ منا فلسـنا الجازعين اليائسين
إنّا بجبّـار السماء وبالعقيدة نَسْـتعين
إنّ العقيدة لا تزلـزلها حِرابُ الغاصبين
فلئنْ ملـكتم يومَكم لغـدٌ لرب العالمين
أأمِنْتمو صرفَ الزمـان وفتكه بالغاشمين ؟

* * *

كم من قويٍّ هـدّه كَيْدُ الضعيف المستكين
أو لمْ تروْا ماذاقه بالأمس ذيّاك السجين[٣] ؟
فى (سنت هيلين) قضى من دَوَّخَ الدنيا سنين

(١) الجلى : النازلة الشديدة . (٢) القاسطون : الظالمون .
(٣) نابليون ، وقد مات أسيرا سجينا فى جزيرة سنت هيلين .

من كان فى غاراته فى الكون منقطع القرين
أمسى ألا تنه الخطوب وكان صلباً لا يلين
أو تتقون مصيره أم تستمو بالمتقين ؟

* * *

ضقنا بكيد محايدين لنا وكيد مبشرين
ثاروا على دين الهدى وتخطفوا منا البنين
داسوا العرين وقد خلا من أسده ذاك العرين
خسر المبشر ، إنّ دين الحق دين المسلمين
الله حاميه وكافيه شرور المعتدين

نحن والإنجليز وجها لوجه

وقال أيضاً :

قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام ؟
سفكت مودتنا لكم وبدا لنا أن الحياد على الخصام لئام
إن المراجل شرّها لا يتقىَ حتى ينفس كربهنّ صمام
لم يبق فينا من يمنّى نفسه بودادكم فودادكم أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا نَشْقَى بكم فى أرضنا ونُضام ؟
إنّا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيى ونحن كرام

وقال فى أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (إلى الإنجليز) ، وهى من أبلغ ما قيل فى تحدى القوة الغاشمة والصمود أمام الشدائد مهما عظمت :

حوّلوا النيلَ واحجبوا الضوء عنا واطمِسُوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملأوا البحر إن أردتم سفيناً واملأوا الجو إن أردتم رُجوما

وأقيموا المعسف فى كل شبرٍ (كونستلا) بالسّوط يفرى الأديما[1]
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ أو ترونا فى الترب عظما رميما

* * *

عاصف صان ملككم وحماكم وكفاكم بالأمس خطباً جسيما
غال (أرمادة[2]) العدو ففزتم وبلغتم فى الشرق شأوا عظيما
فعدلتم هنيهة ، وبغيتم وتركتم فى النيل عهداً ذميما
فشهدنا ظلما يقال له العد ل ووداً يسقى الحميمَ الحميما[3]
فاتقوا غضبةَ العواصف إنى قد رأيت المصير أمسى وخيما !

وقال أيضاً (ابريل سنة ١٩٣٢) :

لقد طالَ الحيادُ ولم تكفّوا أما أرضاكم ثمنُ الحياد ؟
أخذتم كلَّ ما تبغون منا فما هذا التحكّم فى العباد ؟
بلوْنا شدّةً منكم ولينا فكان كلاهما ذرَّ الرّماد
وسالمتم وعاديتم رمانا فلم يُغن المسالِمُ والمعادى
فليس وراءكم غيرَ التّجنّى وليس أمامنا غيرَ الجهاد

وعود الإنجليز فى الجلاء

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بكاتب فرنسى زعم أن جلاء الإنجليز سيكون فى اكتوبر من ذلك العام :

كم حددوا يوم الجلاء الذى أصبح فى الإبهام كالمحشر
وسن قوم الطيش من جهلهم كذبة (إبريل لأكتوبر)

---

(١) يفرى الأديم أى يشق الجلد .
(٢) الأرمادة هى الأسطول الأسبانى الذى تحطم فى القرن السادس عشر بعاصفة حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزى الذى كان دونه قوة وعددا .
(٣) الحميم الأول الصديق ، والحميم الثانى الشراب الشديد الحرارة .

حافظ وصدقى باشا

وقال فى سنة ١٩٣٢ يندد بسياسة صدقى باشا رئيس الوزارة وفتئذ من قصيدة لم ينشر منها إلاّ النزر اليسير :

قد مرَّ عامٌ ياسعادُ وعام ... وابنُ الكنانة فى حماه يضامُ
صَبُّوا البلاء على العباد فنصفهم ... يجبى البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلى (قصر الدبارة) ما جنى ... (صدقى)الوزير وماجبى(علاّم[1])

ومنها فى مخاطبة صدقى باشا :

ودعا عليك اللهَ فى محرابه ... الشيخُ والقسِّيس والحاخام
لاهُمَّ أحْيِ ضميرَه ليذوقَها ... غَصصاً وتنسف نفسَه الآلام

يكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال فى حرب طرابلس (سنة ١٩١١ — ١٩١٢) حين اعتدت ايطاليا على العرب يستحث أمم الشرق أن تنهض وتكافح الاستعمار ، ويمجد التضحية فى سبيل الحرية :

طَمَعٌ ألْقَى عن الغَرْب اللِّثاما ... فاستَفِقْ يا شَرْقُ واحذَرْ أنْ تناما !
واحمِلى أيتها الشمس إلى ... كلِّ من يسْكن فى الشّرق السّلاما
واشهدى يومَ التّنادى[2] أنّنا ... فى سبيل الحقّ قد مِتْنا كِراما
مادَتِ الأرْض بنا حين انتَشَتْ ... منْ دم القَتْلى حلالاً وحراما
عجز الطّلْيانُ عن أبْطالنا ... فَأعَلّوا[3] منْ دَرارينا الحساما
كبّلوهم ، قتلوهم ، مثّلوا ... بذَوات الخِدْر ، طاحوا باليتامى
ذَبَحُوا الأشْياخَ والزّمْنى[4] . ولم ... يرحموا طفْلاً ، ولم يُبْقُوا غُلاما

---

(١) محمد علام باشا ، وكيل حزب الشعب الذى ألفه صدقى باشا . يشير إلى ما كانوا يجبونه من الأموال إعانة لحزب الشعب .

(٢) يوم القيامة . (٣) أعلوا أى سقوا . (٤) الزمنى : ذوو العاهات .

أحرقوا الدُّورَ ، استحلُّوا كلَّ ما حرَّمت (لا هادُ) فى العَهْد احترام
بارَك المطرانُ فى أعمالهمْ فسفوه : بارك القوم علاما ؟
أبهذا جاءهم إنجيلهم آمراً يُلقِى على الأرض سلاما ؟
كشفوا عن نيّة الغَرْب لنا وجلَوْا عن أُفُق الشَّرْق الظَّلاما
فقرأْناها سطوراً من دمٍ أفسمَتْ تَلْتَهم الشَّرق التهاما

وختم قصيدته بقوله :

فاطمئنِّى أُمم الشَّرْق ولا تَقْنَطى اليوم فإنَّ الجِدَّ قاما
إنَّ فى أضْلاعنا أفئدةً تعشقُ المجدَ ، وتأْبى أن تُضاما

تمجيده للشورى

قال فى عمريته المشهورة التى أنشأها فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

يا رافعاً رايةَ الشُّورى وحارسها جزاك ربُّك خيراً عن مُحبِّيها
لا يُلْهِكَ النَّزْعُ عن تأييد دولتها[1] وللمَنِيَّـةِ آلامٌ تُعانيها
لا أَنْسَ أمرك للمِقدادِ يحمله إلى الجماعة إنْذَارا وتنْبيها
إنْ ظلَّ بعد ثلاثٍ[2] رأْيُها شُعَباً فجرِّد السيف واضربْ فى هَوادِيها
فاعجَبْ لقوَّة نفسٍ ليس يصرفها طَعْمُ المنيَّة مُرًّا عن مراميها
درَى عَميدُ بَنى الشُّورَى بموْضعها فعاش ما عاشَ يَبْنيها ويُعْليها
وما استبَدَّ برأْيٍ فى حكومته إنَّ الحكومة تُغرى مستبدِّيها
رأى الجماعة لا تَشْقَى البلادُ به رغْم الخلاف ورأْىُ الفرْد يُشْقيها

(١) دولتها ، أى دولة الشورى .
(٢) بعد ثلاث ، أى بعد ثلاث ليال . والهوادى : الأعناق .

الاستمرار فى الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار فى الكفاح :

إنا سنعمل للخلاص ولا نَنِي ... والله يَقْضِى بيننا وبديل[١]
كم دولةٍ شَهِد الصباحُ جلالها ... وأتى عليها الليلُ وهى فُلُولُ
وقصورِ قومٍ زاهراتٍ فى الدُّجَى ... طَلَعَتْ عليها الشمس وهى طُلُولُ

* * *

يأيها النَّشْءُ الكِرام تحيَّةً ... كالرَّوْض قد خطرت عليه قَبُولُ[٢]
يا زَهْرَ مصرَ وزَيْنَها وحُماتها ... مَدْحى لكم بعد الرئيس[٣] فُضُولُ
جُدْتُمْ لها بالنفس فى وَرْدِ الصِّبا ... والورد لم يُنْظَرْ إليه ذُبُولُ
كم من سجينٍ دُونَها ومجاهدٍ ... دَمُه على عَرَصاتها مَطْلُولُ
سيروا على سَنَنِ الرئيس وحقِّقوا ... أمل البلاد فكلُّكم مأمولُ
أنتُمْ رجال غدٍ وقد أوْفَى غَدْ ... فاستقْبِلوه وحَجِّلوه وطُولوا[٤]

تقريعه للمواطنين

و بلغ حثه المواطنين على النهوض حد التقريع أحيانا . وله ستة ١٩٠٤ قصيدة ينعى فيها على مواطنيه بعض عيوبهم الاجتماعية ، وقد نظمها لمناسبة قضية شخصية ثار لها الرأى العام بغير موجب ، إذ تزوج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ على يوسف بكريمة السيد عبد الخالق السادات ، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالبا فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة فى النسب ، وانحاز الرأى العام إلى جانب المدعى ، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ على يوسف فى الهيئة الاجتماعية ، قال حافظ :

---

(١) بديل ، أى يجعل الدولة لنا عليهم .
(٢) القبول : ريح الصبا .
(٣) يقصد هنا سعد زغلول .
(٤) حجلوه ، أى اجعلوه يوماً أبيض ، وطولوا أى افخروا واعتزوا .

حَطَمْتُ اليراعَ فلا تَعْجَبي ... وعِفْتُ البيان فلا تَعْتبي
فما أنتِ يامصرُ دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطَّيِّبِ
وكم فيك يا مصر من كاتبٍ ... أقالَ اليراع ولم يكتبِ
فلا تَعْذليني لهذا السُّكوت ... فقد ضاق منك ما ضاق بى
أبعْجبني منكِ يومَ (الوفاق)[1] ... سكوت الجماد ولعْبُ الصَّبى ؟
وكم غضب الناسُ من قبلنا ... لسَلْبِ الحقوق ولم تَغْضَبِ

* * *

أنابتةَ العصر إنّ الغريب ... مُجَدَّدٌ بمصر فلا تَلْعَبى
يقولون : فى النَّشْءِ خيرٌ لنا ... وللنَّشْءِ شَرٌّ من الأجنبى
أفى (الأزبكيَّة) مَثْوَى البنين ... وبين المساجد مَثْوَى الأب ؟
(وكم ذا بمصر من المُضحكات) ... كما قال فيها (أبو الطَّيِّب)[2]
أمورٌ تَمُرُّ وعَيْشٌ يمُرُّ[3] ... ونحن من اللَّهْو فى مَلْعَب
وشعبٌ يفرُّ من الصالحات ... فِرارَ السَّليم من الأجْرب
وصُحْفٌ تَطِنُّ طنينَ الذُّباب ... وأُخْرَى تَشُنُّ على الأقْرَب
وهـذا يلوذ بقصْر الأمير ... ويدعو إلى ظلِّه الأرحب
وهذا يلوذ بقَصْر السَّفير ... ويُطْنِبُ فى وِرْده الأعذب
وهـذا يَصيح مع الصَّائحين ... على غير قصْدٍ ولا مأْرب

* * *

وقالوا : (المؤيِّدُ) فى غمْرةٍ ... رماه بها الطَّمع الأشْعبى

---

(١) يقصد الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطانى لمصر .

(٢) يشير إلى قول أبى الطيب المتنبى : (وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا)

(٣) عيش يمر ، أى يصير مراً .

دعاهُ الغرام بسنِّ الكهول ... فجُنَّ جُنُوناً بِبِنْتِ النَّبى !
فضجَّ لها العرش والخامِلُوه ... وصح لها القَبْر فى (يَثْرِب[1])
ونادى رجالٌ بإسقاطه ... وقالوا : تَلَوَّن فى المشرب
وعَدُّوا عليه من السَّيِّئات ... ألوفاً تدور مع الأَحْقَبِ
وقالوا لَصِيقٌ ببيْت الرسول ... أَغار على النَّسَب الأَنْجَبِ
وزَكَّى (أبو خَطْوَةٍ) قولهم ... بحُكْمٍ أَحَدَّ من المضْرَب
فما للتهانى على داره ... تَساقَطُ كالمَطَر الصَّيِّب ؟
وما للوفود على بابه ... تَزُفُّ البشائرَ فى موكِب ؟
وما للخليفة أَسْدَى إليه ... وساماً يليق بصدْر الأَبى ؟

* * *

فيا أمةً ضاق عن وصفها ... جَنَانُ المُفوَّه والأَخْطَب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويَصْلَى البرئُ مع المذنب ؟
ويُهْضَم فينا الإمام الحكيمْ ... ويُكرَمُ فينا الجهول الغبى

* * *

على الشرق منِّى سَلامُ الوَدُود ... وإنْ طأطأَ الشرق للمغْرب
لقد كان خِصْباً بَجدْب الزّمان ... فأَجدَب فى الزمن المُخْصِب

شعره الاجتماعى

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات ، فهو من هذه الناحية أغزر مادة وأعمق غورا من شوقى ، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية ، وعانى ما تعانيه من الألم والحرمان ، فصار أدق تصويرا لأحوالها وآلامها ، وفى ذلك يقول بحق عن نفسه فى قصيدته التى أنشدها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ فى حفلة جمعية رعاية الأطفال :

(١) اسم قديم للمدينة المنورة .

لم أقف مَوْقِفى لأُنشِدَ شعراً ... صُبَّ فى قالبٍ بديع النِّظام
إنّما قمتُ فيه والنَّفس نَشْوَى ... من كؤوس الهموم والقلب دامى
ذُقْتُ طعم الأَسَى وكابدت عيْشاً ... دونَ شُرْبى قَذَاهُ شربُ الحِمام(١)

فتقلَّبْتُ فى الشَّقاء زمانا ... وتنقَّلتُ فى الخطوب الجِسام
ومشى الهمُّ ثاقِباً فى فؤادى ... ومشى الحزن ناخِراً فى عِظامى
فلهذا وقفتُ أَسْتَعْطِف النَّا ... سَ على البائسين فى كلّ عام

عطفه على منكوبى حريق ميت غمر

فى سنة ١٩٠٢ شب حريق مروع فى مدينة ميت غمر ، وبقيت النار مشتعلة فيها عدة أيام ، فدمرت كثيراً من دورها ومات فى الحريق كثيرون ؛ ولعظم النكبة تسابق أهل الخير فى إعانة المنكوبين وإسعافهم ، وفاضت أعمدة الصحف بأنباء ما أصابهم ، وفى ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة فى وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها . قال :

سائلوا اللّيل عنهمُ والنّهارا ... كيف باتت نساؤهم والعَذَارَى ؟
كيف أمْسَى رضيعهم فَقَدَ الأُ ... مَّ وكيف اصطلى مع القومِ نارا ؟
كيف طاح العجوز تحت جِدار ... يتداعَى وأَشْقَفٍ تَتَجارَى ؟
ربِّ إنّ القضاء أَنحى عليهم ... فاكشف الكَربَ واحجُبِ الأَقْدَارا
ومُرِ النَّارَ أنْ تَكُفَّ أَذاها ... ومر الغيث أَن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفُلْك يُرْوِى ... هذه النَّار فهى تشكو الأُوارا(٢)
أشعلتْ فَحْمَةَ الدَّياجى فباتت ... تملأُ الأَرض والسَّماء شَرارا
غَشِيتْهم والنَّحْسُ يَجْرِى يَميناً ... ورَمَتْهُم والبُؤْسُ يَجْرِى يَسارا
فأَغارتْ وأَوْجهُ القومِ بِيضٌ ... ثمّ غَارَتْ وقد كَسَتْهُنَّ قارا

(١) الحمام : الموت .
(٢) الأوار : شدة الحرارة والعطش .

أكلت دورهم فلمّا استفَتْ ... تْ غَدِرْ صغرَهُمْ والكِبارا
أخْرَجَتْهُمْ من الديار عُراةً ... حَذَرَ المَوْت يطلبون الفِرارا
يَلْبَسُونَ الظلام حتّى إذا ما ... أقْبَلَ الصبح يُلبسونَ النّهارا
حُلّةً لا تَقيهِم البَرْدَ والحَـ ... ـرَّ ولا عَنْهُمُ تَرُدُّ الغُبارا

* * *

أيّها الرّافلون فى حُلَلِ الوَشْـ ... ـى[1] يَجُرُّونَ للذُّيول افْتِخارا
إنّ فَوْق العراء قوماً جِياعاً ... يَتَوارَوْنَ ذِلّةً وانكِسارا
أيُّهذا السَّجينُ[2] لا يمنع السَّجْـ ... ـن كَرِيماً من أن يُقيل العثارا
مُرْ بألْفٍ لهم وإنْ شئْتَ زِدْهَا ... وأجِرْهُمْ كما أجَرْتَ النَّصارى

* * *

قد شَهِدْنا بالأمْس فى مِصْرَ عُرْساً[3] ... ملأ العَيْنَ والفُؤادَ ابتهارا
سالَ فيه النُّضارُ حتّى حسِبْنا ... أن ذاك الفِناءَ يَجْرى نُضارا
باتَ فيه المُنَعَّمون بلَيْلٍ ... أخْجَل الصُّبْحَ حُسْنُه فتَوارَى
يَكْتَسُون السرورَ طَوْراً وطورا ... فى يَدِ الكأْس يَخْلَعُون الوَقارا
وسَمِعْنا فى (ميت غَمْرٍ) صياحاً ... ملأ البَرَّ ضَجّةً والبِحارا

* * *

جَلَّ من قَسَّم الحظوظ ، فهذا ... يَتَغَنَّى وذاك يبكى الدِّيارا
رُبَّ لَيْلٍ فى الدهر قد ضَمَّ نَحْساً ... وسُعوداً وعُسْرَةً ويَسارا !

---

(١) حلل الوشى : الثياب المزركشة .

(٢) يقصد أحمد المنشاوى باشا المحسن المشهور وصاحب المبرات المعروفة .

(٣) يقصد عرس زواج (الأمير) حيدر فاضل من كريمة على فهمى (باشا) سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات .

الجامعة سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له فى سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية .

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا ... إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا[١]

ولا حياة لكم إلا بجامعة ... تكون أمّا نظلاب العلا وأبا

تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة ... من المعالى وتبنى العز والغلبا

ضعوا القلوب أساسا . لا أقول لكم ... ضعوا النضار فإنى أصغر الذهبا

وابنوا بأكبادكم سورا لها ودعوا ... قيل العدو فإنى أعرف السببا[٢]

لا تقنطوا إن قرأتم ما يزوقه ... ذاك العميد ويرميكم به غضبا[٣]

وراقبوا يوم لا تغنى حصائده ... فكل حى سيجزى بالذى اكتسبا[٤]

بنى على الإفك أبراجا مشيدة ... فابنوا على الحق برجا ينطح الشهبا

وجاوبوه بفعل لا يقوضه ... قول المفند أنى قال أو خطبا

لا تهجعوا إنهم لن يهجعوا أبدا ... وطالبوهم ولكن أجملوا الطلبا

وختمها بقوله :

إن تقرضوا الله فى أوطانكم فلكم ... أجر المجاهد طوبى للذى اكتتبا

رعاية الأطفال

وألقى فى إبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية فى احتفال أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف بؤس أم فقيرة حامل وكيف لقيت الرعاية والإسعاف فى مستشفى الجمعية :

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال ؟ ... لا ، بل فتاة بالعراء حيالى

أمست بمدرجة الخطوب فما لها ... راع هناك وما لها من والى

---

(١) أى يبعث فيكم مجد العرب .

(٢ و ٣) يشير إلى ما كان يقيمه المعتمد البريطانى من العقبات فى سبيل إنشاء الجامعة .

(٤) حصائد ، أى حصائد العميد أى ما يقوله ليثنى به العزائم عن مشروع الجامعة .

حَسْرَى تكاد تُعيد فَحْمَةَ لَيْلِها ... نارا بأَذْبُلَ ذَكَّيْنَ[1] طِوالِ

ما خَطْبُها ، عَجَبا ، وما خطبي بها ؟ ... سألى أشاطرها الوجيعةَ مالى ؟

دانَيْتُها ولصَوْتِها فى مسْمَعى ... وقعُ النَّبال عَظَمْنَ إثْرَ نِبالِ

وسألتها : من أنتِ ؟ وهى كأنها ... رَسْمٌ على طَلَلٍ من الأطلالِ

فتَململَتْ جَزَعا وقالت : حامِلٌ ... لم تدْرِ طعم الغَمْض منذ ليالى

قد مات والدُها وماتَتْ أمُّها ... ومَضَى الحِمامُ بِعَمِّها والخالِ

* * *

وإلى هنا حَبَسَ الحياءُ لسانها ... وجرَى البُكاءُ بدَمْعها الهطّالِ

فعلِمْتُ ما تُخْفِى الفَتاةُ وإنّما ... يَحْنُو على أَمْثالها أَمْثالى

ووقَفتُ أَنْظُرُها كأنّى عابِدٌ ... فى هَيْكلٍ يَرْنو إلى تِمْثالِ

ورأيتُ آياتِ الجمال تكَفَّلَتْ ... بزَوالهنّ فَوادِحُ الأَثْقالِ

لا شىءَ أَفْعَلُ فى النُّفوس كقامَةٍ ... هَيْفاء رَوَّعها الأَسَى بِهُزالِ

أو غادةٍ كانت تُرِيكَ إذا بَدَتْ ... شمسَ النَّهار فأَصْبحت كالآلِ[2]

* * *

قلتُ: انهَضى قالت : أَيَنْهَضُ مَيِّتٌ ... من قبره ويَسيرُ شَنٌّ بالى[3]

فحملتُ هَيْكلَ عَظْمها وكأنّنى ... حُمِّلْتُ حين حَمَلْتُ عُودَ خِلالِ

وطفِقْتُ أَنْتَهِبُ الخطا متيَمِّماً ... باللَّيل (دار رعاية الأطفال)

أَمْشى وأَحْمِلُ بائسَيْن : فطارِقٌ ... بابَ الحَياةِ ومُؤْذِنٌ بزَوالِ[4]

أَبْكيهما وكأَنّما أنا ثالثٌ ... لهما من الإشْفاق والإعْوالِ[5]

* * *

---

(١) ذكين ، أى توقدن واشتعلن .

(٢) الآل : السراب .

(٣) الشن : القربة الخلق البالية

(٤) طارق باب الحياة : الجنين . ويريد بالمؤذن بالزوال أمه .

(٥) الإعوال : البكاء .

وطرقتُ باب الدار لا مُتهيِّبًا ... أحداً ولا مترقِّباً لسؤال
طَرْقَ المُسافرِ آبَ من أسفاره ... أو طَرْقَ ربِّ الدّار غير مُبالى
وإذا بأصواتٍ تصيح : ألا افتحوا ... دقّاتُ مَرْضَى مُدْلِجين عجال
وإذا بأيْدٍ طاهراتٍ عُوِّدَتْ ... صُنعَ الجميل تطوَّعَتْ فى الحال
جاءت تُسابِقُ فى المبَرَّةِ بَعْضُها ... بعضاً لوَجـــه الله لا للمال
فتناوبتْ بالرِّفق ما أنا حامـــلٌ ... كالأُمِّ تَكْلأُ طِفلها وتُوالى
وإذا الطبيب مُشَمِّرٌ وإذا بها ... فوقَ الوســائد فى مكان عالى
جاءوا بأنواع الدّواء وطوَّفـــوا ... بسَرِير ضَيْقَتِهم كبَعْضِ الآل
وجثا الطبيبُ يجسُّ نَبْضاً خافتاً ... ويَرُود مَكمَنَ دائها القتّـــال
لم يَدْرِ حين دَنَا ليَبْلُوَ[1] قلبها ... دَقّات قَلْبٍ أم دبيبَ نِمَال ؟

* * *

ودّعْتها وتركْتُها فى أهلها ... وخرجتُ مُنْشَرِحاً رَضِىَّ البال
وعجزْتُ عن شكر الذين تجرّدوا ... للباقيات وصالح الأعمـــال
لم يَحْجلوها بالسُّؤال عن اسمها ... تلك المروءة والشعورَ العـــالى
خيرُ الصنائع فى الأنام صنيعةٌ ... تَنْبُو بحاملها عن الإذلال
وإذا النَّوَال أتى ولم يُهْرَقْ له ... ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعْد السؤالِ فإنّه ... — وهو الجوادُ — يُعَدّ فى البُخّال

* * *

لله دَرُّهمُ فكم من بائسٍ ... جَمَّ الوَجيعة سَيِّئ الأحـــوال
ترمى به الدُّنيا فمن جوعٍ إلى ... عُرْيٍ إلى سُـــقْمٍ إلى إقلال
عينٌ مُسَهَّدَةٌ وقلبٌ واجفٌ ... نَفْسٌ مُرَوَّعةٌ وجَيْبٌ خالى
لم يدْرِ ناظـــرُه أعُرْيانا يَرَى ... أم كاسياً فى تلْكم الأسمـال ؟

---

(١) يبلو . أى يختبر .

فكأنَّ ناحِلَ جسمه فى ثَوْبه ... خلفَ الخروقِ يُطِلُّ من غِرْبال

يا بَرْدُ فاحمِلْ قد ظَفِرْتَ بأعزلٍ ... يا حَرُّ تلك فريسةُ المُعْتال

يا عَيْنُ سُحِّى يا قلوب تَفَطَّرى ... يا نَفْسُ رِقِّى يا مروءةُ وَالى

لولاهمُ لقضى عليه شقاؤه ... وخلا المجالُ لخاطف الآجال

لولاهم كان الرَّدى وَقفًا على ... نفس الفقير ثقيلةِ الأحمال

* * *

لله دَرُّ الساهرين على الأُلى ... سَهروا من الأوْجاع والأوْجال[1]

القائمين بخير ما جاءتْ به ... مدنيَّة الأدْيان والأجْيال

أهْلِ اليتيم وكَهْفه وحُماته ... وربيع أهل البؤس والإمْحال[2]

* * *

لا تهْمِلوا فى الصالحات فإنكم ... لا تجهلون عواقب الإهمال

إنى أرى فقراءكم فى حاجةٍ ... — لا تعلمون — لقائلٍ فعَّال

فتَسَابقوا الخيْرَات فهى أمامكم ... ميدان سَبقٍ للجواد النَّال[3]

والمحسنون لهمْ على إحْسانهم ... يومَ الإثابة عَشْرَةُ الأمْثال

وجزاء ربِّ المحسنين يَجِلُّ عن ... عَدٍّ وعن وَزْنٍ وعن مكيال

وقال فى سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء :

دَعْوَةُ البائس المعذَّبِ سُورٌ ... يدفع الشَّرَّ عن حياض الكِرامِ

وهى حرْبٌ على البخيل وذى البَغْـ ... ـى وسَيْفٌ على رقاب اللِّئام

إنَّ هذا الكريم قد صان عِرْضى ... وحَمانى من عاديات السَّقام

عال طفلى وعالَنى وحَبانى ... بكساء وبدرَةٍ وطعام

وهو من مَعشرٍ أغاثوا ذوى البؤْ ... س وقاموا فى الله خير القيام

---

(١) الأوجال : المخاوف . (٢) إلا محال : الجدب .

(٣) الجواد : الكريم . والنال : الكثير النائل وهو العطاء .

وأقاموا البرَّ داراً فكانت خير وِرْدٍ يَؤُمُّه كلُّ ظامى
مُلِئْتَ رَحمةً وفاضت حَنَانًا فهى للبائسات دارُ السلام

إلى أن قال فى الإحسان والزكاة :

قد نَجَا المُنعِمُ الجواد من المو ت بفَضْل الزَّكاة والإنْعام
فأَطَفْنا بها وقد ملأ الأُنـ ـفس منَّا جلالُ ذاك المقام
وشهدْنا ثَغْرَ الوفاء تجلّى إذ تجلى فى ثَغْرها البسام
ورأَينا شخص المروءة والبِـ ـرِّ تبدَّى فى شخص ذاك الهمام
وعَلِمْنا أن الزكاة سبيلُ اللَّـ ـه قبل الصَّلاة . قبل الصِّيام
خَصَّها الله فى الكتاب بذكرٍ فهى ركن الأركان فى الإسلام
بدأتْ مبدأَ اليقين وظلّتْ لحياة الشُّعوب خير قِوام
لو وَفَى بالزَّكاة مَن جَمَعَ الدُّنـ ـيا وأَهْوَى على اقتناء الحُطام
ما شكا الجوعَ مُعْدِمٌ أو تَصَدّى لركوب الشرور والآثام
راكباً رأسه طريداً شريداً لا يُبالى بشِرْعةٍ أو ذِمام
سائلًا عن وصيَّة الله فيه آخذاً قوتَه بحدِّ الحسام

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ فى تحية ملجأ الحرية ، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبروا الأيتام والفقراء ، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة فى النفوس من التطلع إلى المثل العليا .

أيها الطفلُ لك البشرى فقد قَدَّر الله لنا أنْ نُنْشَرا[1]
قَدَّر الله حياةً حُرَّةً وأبَى سبحانه أنْ نُقْبَرا

(١) ننشر ، أى نحيا ونبعث .

لا تخفْ جوعاً ولا عُرْياً ولا ... تَبْكِ عيناكَ إذا خَطْبٌ عَرَا[1]
لك عنـــــد البرِّ فى مَلْجَئه ... حيث تأوى خاطرٌ لن يُكْسَرَا
حيث تلقَى فيـه حَدْباً وترى ... بين أترابك عيشاً أنضَرَا

* * *

لا تسىء ظنّا بمُثْرِينا فقـــد ... تاب عن آثامه واستَغْفرا
كان بالأمْس وأقْصَى هَمِّـه ... — إنْ أتى عارفةً[2] — أن يظْهَرا
فغَدا اليومَ يُواسى شَـــعْبَه ... وهو لا يرغبُ فى أن يُشْكَرا
نَبَّهَتْ عاطفـــــةَ البرِّ به ... مِحْنَةٌ عَمَّت ومقدارٌ جَـرَى
جَمَعَتنا فى صعيدٍ واحـــدٍ ... وأرَادَتنا على أن نُقْهَرا
فتعاهـدْنا على دَفع الأذى ... بركوب الحزْم حتَّى نَظْفَرا
وتواصَينا بصبرٍ بيننـــــا ... فغَدَوْنا قُوَّةً لا تُزْدَرَى
أنْشَرَتْ[3] فى مصر شَعْباً صالحاً ... كان قبل اليَوْم مُنْفَكَّ العُرَا
كم محبٍّ هائمٍ فى حبِّها ... ذادَ عن أجفانه سَرْحَ الكَرَى
وشبابٍ وكهولٍ أقسموا ... أن يَشِيدوا مجدها فوق الذُّرَا

* * *

يا رجالَ الجِدِّ هـــذا وقته ... آنَ أن يعْمَلَ كُلٌّ ما يَرَى
ملجأً أو مصرِفاً أو مصنعاً ... أو نقاباتٍ لزُرَّاع القُـــرَى
أنا لا أعذر منكم من وَنَى ... وهو ذو مَقْـدرةٍ أو قَصَّرا
فابْدَءوا بالْمَلْجَأ الحرِّ الذى ... جئت للأيْدى له مُسْتَمْطِرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلَمُوا ... أنَّ كلَّ الصَّيْد فى جَوْف الفَرَا
أيُّها المُثْرى ! ألَا تَـكْفُلُ مَنْ ... بات محروماً يتيما مُعْسِرا ؟

---

(١) عرا : ألم ونزل .
(٢) العارفة : العطية والمعروف .
(٣) أنشرت ، أى أحيت .

أنتَ ما يُدْريك لو أنبَتَه ... ربما أطْلَعْتَ بدراً نَيِّرا
ربما أطْلَعْتَ (سعداً) آخراً ... يُحْكِمُ القول ويَرْقى المِنْبرا
ربما أطلعت منه (عَبْدَه) ... مَن حَمَى الدِّين وزان (الأزهرا)
ربما أطلعت منه شـــاعراً ... مثل (شوقى) نابهاً بين الوَرَى
ربما أطلعت منـــــه فارساً ... يدخل الغِيل على أسْد الشَّرَى (١)
كم طوى البؤس نفوسا لو رعَتْ ... منبتاً خصباً لكانت جَوهرا
كم قَضى العُدْمُ على موهِبَةٍ ... فتوارت تحت أطباق الثَّرَى

* * *

كلُّ من أحيا يتيما ضائعاً ... حَسبه من رَبِّه أن يُؤْجَرا
إنما تُحْمَـــد عُقْبَى أمره ... مَن لأُخراه بدُنياهُ اشترَى

جمعية إعانة العُميان

وقال فى سنة ١٩١٦ فى احتفال أقامته جمعية إعانة العميان :

إن حق الضَّرير عند ذَوِى الأبْـ ... ـصار حَقٌّ مُسْتوجب التَّقْديس
لم يَضِرْه فقْدانُه نُورَ عينيـ ... ـه إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنِسوا نفسه إذا أظْـــلم العيْـ ... ـش بعلم فالعلم أنس النفوس
وَجِّهوه إلى الفـــلاح يُفدْكم ... فوق ما يسْتفيده من دروس
أكملوا نَقْصَه يكن عبقرياً ... مثْل (طَهَ) مُبَرِّزاً فى الطُّروس
كم رأينا من أكْمهٍ لا يُجارَى ... وضريرٍ يرْجى ليـــوم عبوس
لم تقف آفة العيـــون حجازاً ... بين وثْباته و بين الشـــموس
عَدِمَ الحِسّ قائداً فحـــــداه ... هَدْيُ وجدانه إلى المحسوس

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف تأوى إليه الأسود ، والشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بأسادها المثل .

مثل هـــــذا إذا تعم أغنى عن كثير وجاءنا بالنفيس
ذاك أنّ الذكاء والحفظ حلاً فى حوار النُهى بتلك الرءوس
فعلى كلّ أكمه وبصـــير شكر أعضائكم وشكر الرئيس

المال والعلم والأخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر ، من قصيدته — مصر تتحدث عن نفسها — :

وارفعوا دولتى على العلم والأخلا ق فالعـــلم وحده ليس يجدى

وقال سنة ١٩١٠ من قصيدة له (ص ٩٨) فى الحث على إعانة مدرسة البنات ببور سعيد :

كمْ ذا يكابدُ عاشقٌ ويُلاقِى فى حُبِّ مصْر كثيرةِ العُشّاق
إنّى لأحمِلُ فى هواكِ صَبابَةً يا مِصْرُ قد خرَجَتْ عن الأطْواق
لَهْفِى عليكِ متى أراكِ طليقةً يَحْمِى كريمَ حِماكِ شَعْبٌ راقى
كَلِفٌ بمَحْمود الخِلال مُتَيَّمٌ بالبَذْلِ بين يدَيْك والإنْفاق
إنّى لتطرِبُنى الخِلالُ كريمةً طَرَبَ الغَريب بأوْبةٍ وتلاقى
وتَهُزُّنى ذكرى المروءة والنّدى بين الشّمائل هِزّةَ المشتاق

* * *

فإذا رزقْت خليقةً محمودةً فقد اصطفاك مُقَسِّمُ الأرزاق
فالناس هـــذا حَظُّه مالٌ وذا علْمٌ وذاك مكارم الأخلاق
والمـــال إنْ لم تدخره مُحَصَّناً بالعلم كان نهايةَ الإمْلاق[1]
والعلم إن لم تكتنفه شمائلٌ تُعْليه كان مطيَّةَ الإخْفاق
لا تحسبنّ العـــلم ينفع وحدهُ ما لم يُتَوَّجْ رَبُّه بخَلاق[2]

---

(١) الإملاق : الفقر .
(٢) الخلاق : النصيب من الخير والصلاح .

فضل المرأة على المجتمع

وقال فى هذه القصيدة ينوه بفضل المرأة فى المجتمع :

من لى بتربية النساء ؟ فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددتَ شعباً طيّب الأعراق[1]

الأم روض إن تعهده الحيا[2] ... بالرى أورق أيما إيراق

الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

* * *

أنالا أقول دعوا النساء سوافراً ... بين الرجال يجُلْنَ فى الأسواق

يَدْرُجْنَ حيث أردن لا من وازعٍ ... يحذرنَ رِقْبَته ولا من واقى

يفعلن أفعال الرجال لواهياً ... عن واجبات نواعسِ الأحداق

فى دورهن شؤونهن كثيرة ... كشؤون ربّ السيف والمزراق[3]

كلاّ ولا أدعوكم أن تسرِفوا ... فى الحجب والتضييق والإرهاق

ليست نساؤكم حلى وجواهراً ... خوف الضياع تصان فى الأحقاق

ليست نساؤكم أثاثاً يُقتنى ... فى الدور بين مخادعٍ وطباق

تتشكل الأزمان فى أدوارها ... دُوَلاً وهنّ على الجمود بواقى

فتوسّطوا فى الحالتين وأنصفوا ... فالشرُّ فى التقييد والإطلاق

ربّوا البنات على الفضيلة إنها ... فى الموقفين لهنّ خيرُ وثاق

وعليكم أنْ تستبين بناتكم ... نورَ الهدَى وعلى الحياء الباقى

---

(١) الأعراق : الأصول ، الواحد عرق .

(٢) الحيا : المطر .

(٣) المزراق : الرمح .

المناصب والفضائل

من قوله فى رثائه محمود سامى البارودى :

إنّ المناصب فى عزل وتولية غير المواهب فى ذكر وتخليد

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرة من الوطنية وكنوزا الشعر والحكمة والأخلاق لا تفنى ولا تنفد على مر الزمان .

obeikandl.com